شيماء

أهدتني قلبـــًا

سلسلة روايات الوقف

الروايــة الأولى

لجنة الأوقاف بغرفة الرياض

غرفة الرياض
Riyadh Chamber

ح دار مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف
شيماء أهدتني قلباً؛ مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف - الرياض ١٤٤١هـ
٩٦ ص؛ ١٤ × ٢١ سم
ردمك: ٧-٧-٩١٣٤٠-٦٠٣-٩٧٨
١- القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي: ٨١٣،٠٣٩٥٣١ ١٤٤١/١١٩٧٤

رقم الإيداع: ١٤٤١/١١٩٧٤

ردمك: ٧-٧-٩١٣٤٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة
للجنة الأوقاف بغرفة الرياض

الطبعة الاولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

إهـــداء

منذ تأسيس لجنة الأوقاف بغرفة الرياض في عام (1422هـ / 2011م) في الدورة الخامسة عشرة لمجلس إدارة الغرفة، حتى إعادة تشكيلها في الدورة السابعة عشرة لمجلس إدارة غرفة الرياض، وهي تواصل عملها في خدمة قطاع الأوقاف من خلال ضمِّها لنخبةٍ من ذوي الخبرة والدراية بجوانب ومستجدات قطاع الأوقاف.

وقد تبنت اللجنةُ من لحظة انعقاد اجتماعها الأول في مطلع نوفمبر 2016م في رؤيتها أن تكونَ مرجعًا لرجال وسيدات الأعمال والواقفين في تأسيس وتنمية الأوقاف وتطويرها، جاعلةً نصب عينيها رسالةً هي نشرُ ثقافة الأوقاف لقطاع الأعمال، وتشجيع الأوقاف القائمة ومساندتها؛ من خلال المشاركة في الحلول التشريعية والتنظيمية الوقفية، وصناعةِ التكامل والتنسيق بين الجهات الوقفية والحكومية، والإسهامِ في تحقيق رؤية المملكة العربية السعودية 2030. وقد سعت اللجنةُ إلى مناقشة مستجدات القطاع وتبني المواقف المستثمرة لتلك المستجدات من أجل تطوير القطاع، وإقامة الشراكات الفاعلة مع العديد من الجهات العامة والخاصة لتذليل العقبات، والتعامل مع التحديات بإيجاد الحلول المناسبة لإزالتها.

كما سعت لجنةُ الأوقاف خلال مدة عملها إلى إقامة عدد من الشراكات المثمرة لخدمة قطاع الأوقاف، واستثمارها في توحيد الرؤى، وصنع البرامج نحو التطوير، والرقي بالعمل الوقفي تكاملًا مع جهات الاختصاص.

تعتبر ثقافةُ الوقف والأوقاف من الثقافات الراسخة في المجتمع الإسلامي، بل قد تكون الشعوبُ الإسلاميةُ من أوائل الموقفين، وقد عملت لجنةُ الأوقاف منذ تشكيلها على تبني العديد من الأنشطة والفعاليات لنشر الوعي الوقفيّ، وفي ذلك تبنت تنظيمَ ديوانية الأوقاف التي من خلالها يتم استضافةُ ذوي الخبرة في القطاع الوقفي في مختلف الجوانب التنظيمية والإدارية والشرعية، وإقامة ملتقى الأوقاف الذي يستقطب قاماتٍ وقفيةً وتجاربَ ثريّةً للارتقاء بالعمل الوقفي، والذي يعد رافدًا من روافد الرؤية الوطنية الطموحة، ومن ضمن نشر ثقافة الأوقاف ورفع مستوى الوعي بالدور الريادي للأوقاف في التنمية المستدامة سعت اللجنةُ لإصدار عدد من المطبوعات ذاتِ الطابع التوعويِّ التحفيزيِّ وذاتِ الطابع التوثيقيِّ، وكان من تلك الإصدارات سلسلةٌ لعدد من روايات الوقف، والتي تحكي التوعية بالوقف بطريقة جديدة وفريدة، والتي يسعدني بأن أهديَكم إياها نيابةً عن زملائي أعضاءِ لجنة الأوقاف.

وكُلي أملٌ أن تجدوا فيها ما يسعدكم، وتقبلوا وافرَ التقدير والمحبة.

أخوكم / رئيس لجنة الأوقاف

عبدالله بن فهد العجلان

شيماء

على ارتفاع 75 مترًا عن سطح المياه الجارية بين حافتي صدع (آفون AVON) الذي يفصل بين مدينة (بريستول Bristol) ومنطقة لاي وودز شمال مقاطعة (سمرست Somerset) في الجنوب الإنجليزي، لفحت نسمة شتائية باردة وجه (شيماء) الواقفة على جسر كليفتون الشهير تتأمل الطبيعة الخلابة على طرفي الجسر وأبراجه الشامخة بكبرياءٍ؛ والمصنفة كبناء من الدرجة الأولى في قائمة البناء في المملكة المتحدة؛ لتعلن صمودها وهي تنتصب هنا منذ أكثر من قرن ونصف...

شعرت بالبرد يتسلل إلى عظامها.
رغم ذلك كانت ثمة سعادة غامرة تنتقل عبر شرايينها متأثرة بدفقات الأدرينالين التي تملؤها حماسة كلما فكرت في أنها تخطو خطوتها الأولى نحو تحقيق حلمها أخيرًا.

ملتفةً بعباءتها التي تستر كل أجزاء جسدها، عقدت ذراعيها في محاولة منها لإدخال بعض الدفء إلى أوصالها؛ بينما كانت ابتسامة تشق طريقها بين قسمات وجهها الأسمر الغض الذي ما يزال بعد ربع قرن من ولادتها محتفظًا برونقه ونضارته...

نظراتها الساهمة بعيدًا كانت مرآة لما يجول بين تلافيف دماغها في تلك اللحظة.
هناك في الأفق المتدرج اللون ما بين زرقة السماء وحمرة الغروب؛ كانت ترى نفسها حاملة شهادة الماجستير التي من أجلها قطعت كل تلك المسافة من (المملكة العربية السعودية)، هناك حيث كان مسقط رأسها، متخطية كل العقبات التي اعترضت طريقها حتى الآن.
كانت تحلم باليوم الذي تعود فيه إلى وطنها محققة وصية والدها لها...

أغمضت عينيها مستشعرة تلك اللحظة المطبوعة في ذاكرتها كما لو أنها منقوشة على صخرة ملساء... تستطيع حتى هذه اللحظة أن تستعيد دفء يد والدها بينما يسير ممسكًا بيدها ليوصلها إلى باب المدرسة وهي في الصف الثاني...

في المرة الأخيرة التي أوصلها بها انحنى نحوها واحتضن كفيها بكلتا يديه ليقبلهما ثم مسح رأسها بيده وأوصاها أن تتابع دراستها وتنال الشهادات العليا في أي مجال تختاره... ثم همس لها بأنه يريد منها أن تدخله الجنة بإذن الله بحسن خلقها وعلمها...

قطع شرودها صوت فيصل وهو يقدم لها كوباً من القهوة
- هل أعجبك المكان؟!
تلقفت كوب القهوة بكلتا كفيها محاولة الاستفادة من الحرارة التي ما تزال متعلقة به

- في غاية الروعة!
تابع فيصل كلامه مازحًا:
- لا بأس بنزهة؛ بينما تنهين إجراءات التسجيل في الجامعة، ولكن إياكِ واعتياد النزهات! أنت هنا للدراسة، ويجب أن تثبتي نفسك وإلا...
ضحكت شيماء وهي تهز رأسها وقالت بعد أن تناولت رشفة من قهوتها
- سأجد نفسي في الرياض.... إن لم أنجح فإن لجنة المنح ستعيد النظر بأحقيتي في المنحة... أدرك ذلك جيداً...

ابتسم فيصل وهو يفتح باب السيارة لشيماء
- لجنة المنح طرف مهم... ولكن الطرف الأهم في أمر وجودك في بريستول من عدمه ينتظرك في البيت الآن
- تقصد أمي؟ لا عليك... أثق تماماً بقدرتي على النجاح وتحقيق حلمي... عندها أنا متأكدة أن أمي ستكون سعيدة لأجلي
- بمناسبة الحديث عن أمي، دعينا لا نتأخر... فهي على الأغلب تنتظرنا على العشاء.

استقرت شيماء على كرسيها وأسندت رأسها على زجاج نافذة السيارة؛ مطلقة العنان لطموحها الجامح، بينما بدأ الدفء يتسلل إلى أطرافها....

○○○○○

كريستينا

تسللت أشعة شمس شهر أكتوبر الواهنة عبر الستائر السميكة القاتمة لتمنح قصر ولفرين من الداخل إضاءة خافتة لم تفلح -رغم تواطئها مع الغبار المتكدس- في إخفاء روعة وفخامة الأثاث المرصع والمصفوف في الأنحاء بدقة وأناقة مبهرة..
إضاءة خافتة رغم النوافذ العريضة التي تحيط بالقصر المطل مباشرة على نهر (فروم (وسط مدينة بريستول، كانت مصادفة جميلة -بالنسبة لمدينة تقع في بلاد الضباب- أن تظهر الشمس في مثل هذا الوقت من السنة، ولكن حتى ذلك لم يُغْرِها بفتح الستائر والتمتع بأشعة الشمس.

بتثاقل شتائي أزاحت (كريستينا) عنها ديباجًا حريريًا خمريَّ اللون، مطرزًا بخيوط عاجية أضفت عليه لمسة سحرية تليق بشركة Edra رائدة صناعة المفروشات في بريطانيا، ثم سكنت لبرهة وهي تحدق بعينيها الغائرتين في سقف غرفتها المصمم بطريقة تحاكي الطراز المعماري البيزنطي القديم، ومتجاهلة رنين هاتفها المحمول الذي بدا وهو يعاود الرنين مرة إثر أخرى وكأنه ينقل إلحاح المتصل بزعيقٍ عالٍ يشبه نوبة من السُّعَار.

ألقت نظرة فارغة إلى الساعة المعلقة على الحائط المقابل وهي تشير إلى الثالثة وعشر دقائق عصراً...

رفعت جسدها النحيل عن السرير لتستقر جالسة على طرفه وهي تنظر إلى الهاتف المجنون بطرف عينيها،
سكت الهاتف لحظة؛ فأطلقت تنهيدة ارتياح لم تكد تنهيها حتى تبدلت ملامحها إلى التململ مرة أخرى مع معاودة الهاتف للرنين..
مدت يدها لتجذب الهاتف قبل أن تغير رأيها وتتناول صورة تجمعها بوالدها موضوعة على الطاولة المجاورة للسرير متجاوزة عدة علب لأدوية وعقاقير تتوسط الطاولة..

كانت الصورة مستقرة في إطارٍ على شكل أحد أبنية جامعة بريستول الشهيرة والمتوزعة في عدة أنحاء من المدينة، وكان والدها قد أهداها إياه -إطار الصورة- عندما تم تعيينها فيها كأستاذة ومحاضرة في قسم التاريخ بعد فترة وجيزة من حصولها على شهادة الدكتوراه.

تأملت الصورة؛ بينما راحت دمعة حائرة تترقرق على أبواب جفنيها متناسية الهاتف الذي سكت فجأة كما لو أنه أصيب برصاصة في القلب.

متجاوزة كل الفوضى المتناثرة على الأرض؛ خرجت كريستينا من غرفتها بخطوات مترنحة... نزلت درجات السلم الملتف بشكل نصف دائري والمكسو بقطع من رخام كارارا الإيطالي؛ والتي بدت وكأنها مرايا ذات بياض حليبي ناصع تتخللها نقوش رمادية اللون تنتشر على سطحها بشكل عشوائي، ودلفت إلى بهو ذي مساحة واسعة تملؤه قطع الأثاث الفاخر، وتتوسطه سجادة عاجية اللون ذات وبر طويل بدت كما لو أنها فرو دب قطبي، وفي الركن تنتصب مدفأة حجرية واسعة لم تُصلَ نارها منذ فترة ليست بالقصيرة..

جالت ببصرها في المكان... شعرت بصمت رهيب يلفّ البهو الكبير

الخالي حتى من الخدم والطباخين الذين كانوا -على ما يبدو- ضحية المزاج السيء الذي أضحت عليه في الفترة الأخيرة؛ والذي جعلها تستغني عنهم جميعًا... أحست بأن جسدها يتلاشى تحت وطأة الفراغ المتوحش الذي بدأ يغرس مخالبه وأنيابه في عالمها منذ حادثة التاسع عشر من يونيو...

في ذلك اليوم كان والد كريستينا عائدًا من رحلة عمل في لندن عندما أصاب خللٌ ما طائرتَه الخاصةَ فسقطت قبيل وصولها إلى بريستول، حادثة راح ضحيتها الطيار على الفور؛ أما والد كريستينا فلبث في المستشفى بضعة أيام إلا أنه لم يستطع النجاة.

لم تستطع تقبل فكرة أنها ستبقى وحيدة، منذ اللحظة التي رأت فيها ذلك التابوت الخشبي وهو يغيَّب تحت سطح الأرض، باتت حياتها باهتة، تتدرج ألوانها ما بين الأسود والرمادي والأبيض الكئيب، وبدت الأحداث من حولها كما لو أنها تتفرج عليها عبر شاشة تلفاز هارب من ستينيات القرن الماضي...

ما تزال كلماته لها بعد أن هنأها بتخرجها وحصولها على الشهادة تتردد إلى سمعها وكأنها صدى لصرخات مدوية أطلقت بين جدران كهف سحيق:
- "اليوم فقط أستطيع الاطمئنان عليكِ"
قالها وهو يقدم لها هدية غير عادية، كانت هديتها سيارة جديدة من ماركة جاكوار XJ قرمزية اللون تحمل كل معاني الرفاهية والفخامة التي تليق بسليلة عائلة (ولفرين) الغنية والتي تملك اسمًا جبارًا في مجال صناعة الملاحة الجوية والطائرات...

تحدرت دمعة من إحدى عينيها بينما تتذكر ابتسامتها له وهي تأخذ منه المفتاح وتسأله بدلال:

- لماذا يا سيد ولفرين؟
- لأنني اليوم فقط اطمأننت على ما في رأسك.
وابتسم قبل أن يتابع وهو يشير إلى مكان قلبه مباشرة:
- من الآن فصاعدًا إذا ما واجهتك مشكلة ما فاتبعي قلبك...
قطع شريط ذكرياتها جرس الباب الذي بدأ يرن بعصبية وكأن سعار الهاتف المحمول قد انتقل إليه..

فتحت كريستينا الباب فاندفعت عبره (مارغريت) وأمسكت بكتفي كريستينا بهلع وهي تتفحصها بعينين مذعورتين
- هل أنت بخير؟؟! قالت لاهثة وكأنها خارجة للتو من سباق للماراثون.
"ما زلتُ على قيد الحياة" أجابت كريستينا ببرود وهي تلتفت لتعود أدراجها إلى بهو القصر مطرقةً رأسَها:
- "لم يئن لتعاستي أن تنتهي بعد"
تابعت وهي ترتمي على الأريكة المخملية ذات اللون الفيروزي والتي تلقفت جسدها النحيل كما لو أنه قطعة من حلوى المارشميلو.
قالت مارغريت وهي تقطب حاجبيها وتضع يديها على خصرها معاتبة.
- "ولماذا لا تجيبين على هاتفك"
بلا مبالاة؛ أشاحت كريستينا بوجهها عن مارغريت وآثرت عدم الإجابة.
تبدلت ملامح مارغريت وهي ترى كريستينا على هذه الحال ثم قالت وهي تربت على كتف صديقتها محاولة التخفيف عنها.

"كريستينا... أشعر بالألم الذي يعتريكِ... ولكن إلى متى ستبقين تحت رحمة هذه الحالة؟ يجب أن تعودي إلى عملك... يجب أن تكوني سعيدةً ليكون والدكِ راضيًا وسعيدًا حيث هو الآن"...

في تلك اللحظة بالذات انتفضت كريستينا صارخة وقد جحظت عيناها في وجه صديقتها وكأن مسّا أصابها:
- "أنتِ لا تشعرين بشيء"!... لا يمكن لأحد أن يشعر بالألم الذي ينهش

أعضائي... لا يمكن لأحد أن يحتمل النيران التي تتأجج في داخلي... لا أحد لا أحد..

آثرت مارغريت الصمت وهي تطرق رأسها بينما ازداد صراخ كريستينا وقد امتلأت عيناها بالدموع:
- ماذا تعرفين عن الألم؟! عن أي سعادة تتحدثين؟
ثم انهارت على الأريكة مرة أخرى متكورة على نفسها وهي تنتحب بنشيج رهيب بينما ضمتها مارغريت وهي تمسح على شعرها وتشاركها البكاء...

كانت (مارغريت) الصديقة الوحيدة التي استطاعت تحمل الكائن المزعج الذي آلت إليه كريستينا بعد وفاة والدها، وكانت معتادة على هذا النوع من المزاجية التي تفجر غضب كريستينا في أوقات الاكتئاب الحاد، هي صديقة طفولتها وما تزالان معًا حتى هذه اللحظة؛ حتى إنهما درستا الدكتوراه معًا في جامعة بريستول، ونالت مارغريت شهادة الدكتوراه في إدارة الأعمال، غير أن اختلاف التخصص لم يفرق بين الصديقتين، كانت الوحيدة الباقية إلى جانبها؛ تقوم على دعمها والعناية بها، وهي التي لطالما أوصاها والد كريستينا بها...

أخذت مارغريت على عاتقها أيضًا متابعة علاقة كريستينا بجامعة بريستول التي أهملتها منذ وفاة والدها؛ فكانت تتابع إجراءات إجازة كريستينا وتبرر غيابها عن العمل وتتولى شرح موقفها وحالتها المزرية أمام إدارة الجامعة وإقناعها بأنها ستعود بعد فترة قريبة، ولم تكفّ خلال ذلك عن إقناع كريستينا بالعودة إلى العمل...

مر وقت ليس بالقصير قبل أن تهدأ كريستينا وتكف عن النحيب، ساد الصمت في المكان ولم تحاول مارغريت كسره حتى تتأكد من أن كريستينا قد عادت إلى طبيعتها..

نهضت كريستينا من مكانها وهي تنظر نحو مارغريت بطرف عينيها:
- سأشرب قهوتي الخالية من الكافيين، هل تريدين كوبًا؟
بدت نبرة كريستينا وهي تقول ذلك وكأنها تحاول الاعتذار على ما بدر منها.

رسمت مارغريت ابتسامة رضا وهي تهز رأسها بالموافقة، وكان ذلك إشارة منها بأن ما حدث لن يغير من محبتها على الإطلاق...
غابت كريستينا في المطبخ للحظات قبل أن تعود حاملة فنجانين كبيرين من القهوة...

بعد أن تناولت رشفتها الأولى قالت مارغريت بنبرة هادئة محاولة عدم إثارة حفيظة كريستينا مرة أخرى.
- رئيس الجامعة السيد جونسون... وكذلك الزملاء، يسألون!
قالت كريستينا ببرود وهي تضع فنجانها على الطاولة.
- ما زال لديهم الأمل بعودتي؟
نظرت مارغريت إلى وجه كريستينا الذي بدا شاحبًا:
- مازال لديهم الإيمان بكِ وبقدرتك على تخريج الكثير من الطلاب والطالبات.
تناولت كريستينا قهوتها وراحت ترتشفها بصمت وهي تلوح بيدها مظهرة عدم مبالاتها...

لم تُرِد مارغريت الضغط عليها ولذلك فقد لجأت إلى حيلة أخرى تحاول بها انتشال صديقتها من مستنقع الاكتئاب الذي تغوص فيه... فقالت وهي تقفز عن الأريكة وتكتف يديها وتنظر إلى كريستينا بابتسامة عريضة..
- اليوم هو الحادي والثلاثون من أكتوبر
اكتفت كريستينا بالنظر إليها ببرود وكأنها لم تفهم ما حل بها فجأة، فأضافت مارغريت:
- هيااا... ما رأيك أن نشارك في احتفالات عيد الهالوين؟ نرتدي الأزياء

الغريبة ونطوف في أنحاء المدينة..
ردت كريستينا بتهكم واضح!
- سأرتدي زي المومياء، سيكون رائعاً، إنه الأنسب لي.
- ستشاركين إذن؟!!
- بالتأكيد لن أفعل... قالت كريستينا وهي ترفع فنجانها لتتناول آخر رشفة متبقية من القهوة وتنهض عن الأريكة مترنحة بينما بدت خيبة الأمل على وجه مارغريت:
- لقد ضربت موعدًا مع المحامي هذه الليلة.
رمقتها مارغريت بنظرة استغراب وكأنها تطلب منها تفسيراً:
- لا أدري! قررت أمس أن عليَّ أن أكتب وصيتي... ربما كان شعورًا باقتراب الأجل هو ما راودني بالأمس فدفعني لأهاتف محامي العائلة.
بدت كريستينا غير متزنة وهي تقول كلماتها الأخيرة.
- صدقيني لا أعرف ماذا سأكتب فيها... لا أعرف كيف سأوزع ثروتي أو لمن أتركها.

قالت كلماتها وهي تلتفت إلى صديقتها قبل أن تسقط على الأرض، وقد اصطبغ وجهها بلون الموت، وسط ذهول مارغريت التي تملّك الرعب قلبها وهي ترى صديقتها على هذه الحال.

○○○○○

تهادت السيارة بهما على الطريق الذي بدأت ملامحه بالتخفي تحت جنح الظلام خلال عودتهما إلى البيت، كانت شيماء مسحورة بالكم الهائل من الجمال الطبيعي الذي رأته في أول نزهة لها في بريستول. كان يومًا آسرًا بكل المقاييس..

زال الظلام مع دخولهما مركز مدينة بريستول حيث تصطف المتاجر والمحلات المضاءة على جانبي الطريق الذي يخترق المدينة، وبدأت حركة السيارة تصبح أكثر بطءً مع ازدياد ازدحام السيارات...

إنها ليلة الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر، الليلة التي يحتفل فيها الإنجليز والدول الغربية بعيد الهالوين؛ ذلك العيد الغريب الذي لم تستطع شيماء أن تفهم فحواه أو الغاية منه، ولكنها كانت مشغولة بالتفرج على الأجواء والأضواء المحيطة بالمكان...

وسط الازدحام دوّى صوت سيارة إسعاف تشق طريقها بصعوبة عبر الزحام المروري، تعالت أصوات منبهات السيارات في محاولة لإفساح الطريق لها دون جدوى... كان الشارع مكتظًا بالسيارات حتى مسافة بعيدة، وباتت حركة الإسعاف معطلة تمامًا، بينما أصبحت بمحاذاة السيارة التي يتواجدان داخلها..

ترجلت من الباب الخلفي لسيارة الإسعاف فتاة ثلاثينية محاولة أن تحث السيارات على التحرك؛ ولكن صرخاتها ضاعت بين ضجيج المنبهات المتعالية ودوي صفارة الإسعاف التي بدت كنداءات ذئب جريح..
على يمين الطريق رأت شيماء مفترقًا لشارع فرعي صغير بالكاد تستطيع الإسعاف أن تمر منه ولكنه من الممكن أن يكون حلًا لها لتتخلص من الازدحام العالقة فيه، فقالت وهي تشير بيدها إلى أخيها:
- توقف.. سنفسح مجالًا للإسعاف للمرور من هنا....

دون تردد أوقف فيصل سيارته مانعًا سيل السيارات خلفه من التدفق بينما ألقت شيماء بنفسها من السيارة وأسرعت نحو سائق الإسعاف المرتبك لتخبره بأن هناك مخرجًا قد يفيد وأن عليه يتبع تعليماتها فقط...

راحت شيماء توجه السائقين الواقفين بسياراتهم أمام المفترق بشكل مباشر، وساعدتهم على القيام بعدة مناورات لإفساح المجال أمام سيارة الإسعاف...

تطلب الأمر بضع دقائق حتى تمكنت من الإشارة لسائق الإسعاف بالانعطاف يمينًا وبشكل حاد حتى استطاع المرور أخيرًا وغاب في ظلام الشارع الفرعي الضيق...

غاصت شيماء مرة أخرى في مقعد سيارة أخيها وهي تفكر بالشخص القابع داخل سيارة الإسعاف، فكرت لو أن هذا المخرج الذي ظهر لم يكن موجودًا ما الذي كان سيحل بالمريض المسكين؟ هل سينجو؟ هل يستطيع دفع تكاليف المستشفى التي ينقل إليها؟ ماذا لو أنه لا يستطيع.. ماذا سيفعل؟ أسئلة كثيرة كانت تدور في خلدها بينما كانت السيارة تنتقل ببطء شديد وسط الزحام المروري الخانق...

في ذلك الموقف استذكرت شيماء أن أول مستشفىً في الإسلام كانت قد افتتحته امرأة وكان عبارة عن خيمة ملحقة بالمسجد لتطبيب المسلمين بإدارة السيدة رفيدة الأسلمية؛ فكانت تلك الخيمة لبنة لمؤسسة خدمية صحية تقدم خدماتها لأفراد المجتمع المسلم.

راحت تحكي لأخيها قصة تلك الخيمة والصحابية التي أسستها، تلك الصحابية الجليلة كانت قارئة وكاتبة، وصاحبة ثروة واسعة، وكانت تنفق على عملها من مالها وثروتها. عرفت بمهارتها في الطب والعقاقير والأدوية وتصنيعها، والجروح وتضميدها، والكسور وتجبيرها. وتعاونت

مع مجموعة من الفتيات تعلّمن التمريض على يديها، حتى إن السيدة رفيدة لم تكتفِ بالقعود في المدينة بل كانت تخرج في الغزوات، وتنقل معها خيمتها بكل متطلباتها وأدواتها واحتياجاتها فوق ظهور الجِمال، ثم تُقيمها بالقرب من معسكر المسلمين..

أين أولئك الذين يقولون بأن المرأة المسلمة كانت مختفية خلف ظل الرجال؟ قالت وهي تنظر إلى أخيها بعينين متقدتين مملوءتين بالتحدي والإصرار...

رمق فيصل أخته بنظرة افتخار وهو يحدث نفسه بأن كل تلك السنوات التي قضتها شيماء في دراسة العلوم الشرعية إلى جانب دراستها للتاريخ قد بدأت تؤتي ثمارها، وها هو يراها تتقدم لنيل شهادة الماجستير متسلحة بالإيمان والعلم.

○○○○○

مستلقية على سريرها الأبيض.. كانت كريستينا تراقب قطرات المطر التي تطرق زجاج نافذة غرفتها الخاصة في مستشفى بريستول، إنه اليوم الأول لها بعد خروجها من غرفة العناية المركزة التي ظلت فيها لثلاثة أيام متتالية...

أغمضت عينيها مفسحة المجال للدموع التي تملؤهما بالجريان على خديها. منذ وصولها إلى هذه الغرفة كان سؤال واحد يشغل تفكيرها وهو لماذا لم تمت لتنتهي رحلة عذابها ذات النجوم الخمس في هذه الحياة بحسب تفكيرها؟!

لم تكن كريستينا متدينة يومًا... ورغم أنها لم تكن من أولئك الذين ينكرون وجود الله إلا أنها لم تفكر يومًا بتأثير الإيمان بالإله على حياتها، باختصار.. كانت كريستينا مسيحية غير متدينة، ولكنها اليوم كانت تفكر بالغاية من عدم موتها في هذا الوقت بالتحديد؛ رغم أنها كانت مرشحة بكل المقاييس المادية للموت... بل إنها تواطأت مع هذه المقاييس لتصبح فرصها بالموت أكثر حظًا...

قطع شرودَها صوتُ مارغريت التي دخلت عليها حاملة وجبة الغداء وقالت وهي تضع الوجبة على طاولة الطعام محاولة إخفاء غضبها وعتبها خلف ابتسامة ود رسمتها على شفاهها.

- كيف حال مريضتنا المشاغبة؟؟!

اكتفت كريستينا بالصمت وهي تشيح بوجهها مرة أخرى إلى النافذة المنداة بقطرات المطر...

جلست مارغريت على طرف السرير محدقة بوجه صديقتها وقالت بعد برهة من الصمت:

- لماذا فعلتِ ذلك كريستينا؟

كانت مارغريت مترددة في طرح الأمر على كريستينا في هذا الوقت

بالذات، وكان صمتها هو فترة لاستجماع القوة التي ستوجه بها هذا السؤال؛ دون أن تتسبب لها بنوبة هياج كعادتها في الأشهر الأخيرة في كل موضوع يفتح أمامها ويكون مخالفًا لهواها، ولذلك فقد طرحت سؤالها بكل الهدوء الممكن.. وردت كريستينا على السؤال بإطراق رأسها دون أن تجيب بأي كلمة.. وبذلك عرفت مارغريت أن بإمكانها متابعة الكلام

- الأطباء قالوا بأن حالتك تلك كانت بسبب توقفك عن أخذ الدواء... قالت مارغريت وهي تقرب طاولة الطعام منها وتابعت وهي تنظر إلى عيني صديقتها بأسى.

- في الحياة ما يستحق العيش كريستينا، صدقيني، عليكِ فقط أن تنظري حولك.

رمقتها كريستينا بنظرة حادة فهمت مارغريت منها بأنها استفزت بركانها الداخلي، فهزت رأسها في إشارة منها بأنها فهمت بأن عليها الصمت، فقالت بهدوء وهي تضع الملعقة المرافقة للوجبة أمامها مباشرة

- يجب أن تعودي إلى العمل يا صديقتي..

وتابعت وهي تحمل حقيبتها من فوق الأريكة المحاذية للسرير:

- سأعود مساءً... فكري في الأمر مليًا.

ثم أدارت ظهرها وهمت بالخروج فقاطعها صوت كريستينا وهي تضغط أسنانها بغيظ شديد:

- لقد فكرت مسبقًا... لا أريد العودة إلى العمل... بل لا أريد البقاء على قيد الحياة.. هل هذا مفهوم؟

التفتت مارغريت إليها بينما تابعت هي بصوت أرجفه البكاء:

- معك حق... في الحياة ما يستحق العيش، ولكن هذا الكلام ينطبق عليكِ أنتِ أما أنا فلا... أنتِ لم تفقدي أباكِ وأمك! ولم تخلقي بقلب معتل بالكاد يبقيكِ على قيد الحياة، تستطيعين أن تتزوجي وتنجبي أطفالًا لن تكوني وحيدة أبداً كما هو حالي الآن..

أطرقت مارغريت رأسها بأسى في حين كانت كريستينا تخرج كلماتها بصعوبة بين دموعها..

- لماذا أنا بالذات؟ ها؟ من بين ملايين الأطفال لماذا ولدت أنا مصابة بفشل في القلب؟ لماذا ولدت وقلبي غير قادر على ضخ ما يكفي جسمي من الدم؟ لماذا كان عليّ أن ألتزم منذ أن ولدت وحتى هذه اللحظة التي أصبحت فيها أستاذة جامعية بتلك القائمة الطويلة من الأدوية والعقاقير؟

عادت مارغريت لتجلس على طرف السرير محاولة تهدئة كريستينا فقالت:
- أنت تقولينها الآن... رغم كل شيء أصبحت أستاذة جامعية!!... انظري إلى نفسك أي قوة تمتلكين حتى وصلت إلى هنا رغم مرضك؟
- وصلت إلى هنا بفضل والدي، بفضل رعايته وحنانه... أما الآن فقد رحل... رحل وبقيت أنا وحيدة
تحسست مارغريت كتف كريستينا محاولة تهدئتها والتخفيف إلا أنها انتفضت مبتعدة عنها وتابعت كلامها المتهدج تحت تأثير البكاء.
- هل تدركين كم الألم الذي أعانيه وانا أعرف تماماً أنني لن أستطيع أن أصبح أماً؟! هل تعرفين كم من الليالي حلمت فيها بطفل أحمله في أحشائي ثم أربيه... أهبه كل حياتي... أرى فيه الأمل الذي أفقده يوماً بعد آخر، وكان الحلم ينتهي دائماً بوسادة مبللة بالدموع، لماذا؟ لأن الحمل أو الإنجاب هو بمثابة انتحار لامرأة تحمل قلباً كقلبي...
- كريستينا... أنا...
كانت كريستينا مسترسلة في حديثها كما لو أنها أرادت ان تفرغ ما خزنته في صدرها من الآلام والمآسي منذ أن ولدت فقاطعت مارغريت متابعة:
- هل تشعرين بالفراغ الذي يسكن صدري؟ هل تشعرين بذلك الخواء المبهم الذي يمتد ظلامه حتى أعماق روحي كما لو أنه كهف بلا نهاية لا صوت فيه سوى صدى الآلام التي خلفتها لي حياتي البائسة؟ هل تشعرين بأي شيء من ذلك؟
حدقت كريستينا في عيني مارغريت التي بدت عاجزة عن الكلام

- لماذا لا تجيبين؟ بالتأكيد أنت لا تشعرين بشيء! من السهل أن تلقي عليَّ كلاماً فارغاً عن أن الحياة فيها ما يستحق العيش دون أن تدركي أن هذه الجملة بالذات لا تنطبق علي أنا بالذات،

ساد الصمت بين الصديقتين للحظات قبل أن تمسح كريستينا دموعها وتشير إلى مارغريت قائلة:
- ربما تحتاجين إلى بعض الراحة بعد كل ما مر بنا خلال الأيام الماضية...
وافقت مارغريت على كلام كريستينا بهزة من رأسها، كانت الآلام التي فجرها بوح كريستينا قد عقدت لسانها فلم تستطع أن تهمس بأي كلمة، فحملت أشياءها وهمت بالخروج من الغرفة ومرة أخرى قاطعتها كريستينا
- مارغريت... أنا لست إلا جثة هل تفهمين؟ الجثة لا يمكنها أن تعمل... عملها الوحيد هو ممارسة الموت فقط، فإن كنت ستحدثينني عن العمل مرة أخرى فلا تعودي إلى هنا..

تابعت مارغريت طريقها دون أن تبدي أي ردة فعل على كلام كريستينا التي أجهشت بالبكاء ورمت بوجبة الغداء على الأرض بعصبية....
ازداد نحيبها وهي تتذكر والدها مرة أخرى تخيلته أمامها وهو يشير إلى صدره قائلًا عندما تواجهك مشكلة ما فاتبعي قلبك.

تكورت على نفسها وقد تغلغلت أصابعها بين خصلات شعرها.. أحست بظلام ثقيل يضغط على أنفاسها وبأن دموعها أضحت جمرات تتساقط على جسدها فتحرق كل مكان تصل إليه.

رفعت رأسها هي تردد مقولة أبيها
- اتبعي قلبك... اتبعي قلبك... قلبك... قلبك....
ثم تابعت وهي تلقي بجبينها على كفيها وتقول باكية:
- أي قلب سأتبع يا أبي وهو عليل لا يقوى على إبقائي على قيد الحياة؟؟!
عن أي قلب كنت تتحدث يا أبي؟

جالت بنظرها في أركان الغرفة. ومن بين الدموع رأت طفلة صغيرة تقف أمام سريرها وهي تنظر إليها بشفقة بريئة وتبادرها بالقول:

- ألم يأتِ لزيارتك؟ قالت الطفلة وهي تقترب بخطوات بطيئة محاولة تجنب أجزاء الأطباق المكسورة على الأرض.

توقفت كريستينا عن البكاء فجأة، كانت الفتاة في غاية الجمال والبراءة، بشعر أشقر وخصلات معقودة على جانبي رأسها وعينين زرقاوين بشكل غريب ووجه أبيض بوجنتين محمرتين... وقالت مستغربة هذا الجمال الذي اقتحم عليها حزنها فجأة

- من هو؟

قالت الفتاة وهي تقف بالقرب منها مباشرة

- أبوكِ...

ثم تابعت بنبرة محببة:

- معكِ حق... لو كان أبي على قيد الحياة كنت سأحزن كثيرًا لو أنه لم يأتِ لزيارتي في المستشفى... ولكنني أشتاق له كثيرًا وأتمنى لو أنه كان معي هنا.

مسحت كريستينا دموعها وقد ذابت الفتاة في قلبها كقطعة من السكر وأنستها ما كانت فيه من الهم والحزن وقالت محاولة ملاطفة الطفلة:

- ما الذي جاء بك إلى المستشفى إذن؟ مممم... دعيني أخمن! كنت في حفلة فأكثرت من أكل الحلوى والعصائر وصارت بطنك تؤلمك، وجعلتِ أمك تسهر طوال الليل إلى جانبك، أليس كلامي صحيحًا؟ ...

هزت الفتاة رأسها نافية وهي تبتسم بمرح وتقول:

- لقد خسرتِ...

ثم تابعت وهي تلقي بنفسها على الأريكة:

- لم أعانِ أيًا مما ذكرتِ، ولكنني سمعت الطبيب يقول لأمي إنني مصابة بمرض يدعى سرطان نقي العظام.

تلقت كريستينا كلام الطفلة الصغيرة كما لو أن مرجلًا هائلًا قد نفث جحيمه في وجهها، وصم آذانَها طنينٌ رهيب وشعرت بأنها تهوي في هوة دون قرار، في الوقت الذي تابعت فيه الطفلة كلامها بكل براءة

- هل أخبرك بسر؟ الأمر لا يهمني ولن أبكي كما فعلت أمي... صحيح أنني مريضة ولكنني سأكمل حياتي وأحقق حلمي بالوصول إلى النجوم التي أراها كل يوم في السماء،

ثم قالت وهي تبتسم وكأنها تذكرت شيئًا مفرحًا للتو.

- صحيح.. هل أخبرتك أنني سأصبح رائدة فضاء؟!!

بصعوبة تمالكت كريستينا نفسها لترسم ابتسامة على شفتيها من بين الدموع التي تدافعت في عينيها فقالت بصوت متهدج وهي تغالب بكاءها

- رائع... ستكونين أفضل رائدة فضاء في العالم....

ثم تابعت الطفلة وهي تلهو بالحجل على قدم واحدة بالقرب من السرير:

- وانت أيضًا يجب ألا تبكي... مهما كان ما يحزنك فإنه سينتهي... فقط حافظي على شغفك وتحلي بالأمل.. هذا ما كان يقوله لي أبي.

هزت كريستينا رأسها موافقة وهي تجذب الفتاة إليها لتضمها بقوة، في تلك اللحظة أحست بأن نورًا ساطعًا أضاء الظلمة التي تحيط بروحها بعد أن سمعت ذلك الكلام النابع من براءة هذه الطفلة الصغيرة، ثم قالت وهي تمد كفها لتصافح الطفلة الصغيرة.

- بالمناسبة اسمي كريستينا... لقد تعلمت منك درسًا قيمًا اليوم... وسأكون سعيدة لو أصبحنا صديقتين...

ردت روز بمصافحة لا تقل حرارة عن مصافحة كريستينا ثم قالت وعي ترسم على وجهها ابتسامة رضى عريضة.

- اسمي روز...

كانت مارغريت قد وصلت إلى بيتها منذ بضع ساعات عندما وصلتها رسالة من كريستينا تخبرها فيها بأنها ستعود إلى عملها في الجامعة فور خروجها من المستشفى.

○○○○○

دخلت شيماء إلى البيت يملؤها الحماس كما لو أنها كانت هاربة لوهلة إلى سنوات طفولتها الأولى عندما كانت تملؤها فرحة العيد... ألقت حقيبة يدها وكراستها على الطاولة التي تتوسط الصالة وراحت تدور حول أمها بسعادة كفراشة تحوم حول قنديل

استقبلتها أمها بنظرات من الدهشة والاستغراب، لم يكن قد مضى وقت طويل على خروجها صباحاً إلى الجامعة، ورغم سعادتها المبدئية لرؤية شيماء على ذلك النحو من الابتهاج إلا أنه سرعان ما تحول إلى شك ترجمته مباشرة إلى سؤال:
- لماذا عدتِ باكراً؟ وهل هذا سبب هذه السعادة الجميلة التي أراها في وجهك

تبسمت شيماء في وجه والدتها ابتسامة عريضة وضمتها قبل أن ترد على استفسارات أمها بذات الحماس
- عدت باكراً لأنني أنهيت إجراءات التسجيل للتو، وخلال أيام سيتم تعيين الأستاذ المشرف على رسالة الماجستير خاصتي، وبعد عدة أشهر ستصبح ابنتك الأستاذة شيماء عبد الله الحاصلة على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

- لا بأس إن كان الأمر كذلك!! المهم هو ألا تكون عودتك إهمالاً للدراسة والجامعة... تعرفين ما سيحدث في أول هفوة أو خطأ...
هتفت شيماء بذات السعادة وهي تداعب بأصابعها ذقن والدتها
- هو كذلك يا أم فيصل... فقط لا تحرميني من دعواتك!
رسمت الام ابتسامة خفيفة على وجهها قبل أن تتحول عن شيماء وتلقي بنفسها على الأريكة المخملية
- لو أنك استمعتِ لنصيحتي وأتممت دراستك في المملكة، ما الحاجة للسفر إلى بلد آخر لأجل شهادة تستطيعين تحصيلها في بلدك؟
تبدلت ملامح شيماء لسماعها كلام والدتها وخَفَتَ حماسها قليلاً

- أرجوك يا أمي... هل سنعود إلى هذا الحديث مرة أخرى؟
لوحت الام بيدها موافقة على عدم الحديث وقد بدت عليها بعض علامات الامتعاض
- حسناً لن نعيد الحديث... ولكن تذكري وعدك... إذا لم تستطيعي النجاح سنعود إلى السعودية مباشرة.

رمقت شيماء والدتها بنظرة عتب خفيفة ثم أتبعتها بابتسامة رضا وهي تقبل يدها قبل أن تنهض حاملة أغراضها متجهة على غرفتها...
كانت شيماء ترى في أمها منبعًا للنقاء والحب... لم تشعر كثيرًا بغياب والدها رغم أنها كانت في كثير من المواقف تحتاج لوجوده إلى جانبها، كانت تتمنى لو أن هناك سندًا يعاون والدتها على مجابهة الظروف الصعبة التي مروا بها غير أن أمها استطاعت وبكل اقتدار ملء ذلك الفراغ المؤلم في حياتها..

إنها من ذلك الصنف الملائكي من الأمهات المستعدات لإفناء آخر خلية من خلاياهن في سبيل أولادهن؛ دون أن تطلبن لأنفسهن أي شيء، عباداتها وأولادها هي كل ما يشغل تفكيرها، بالنسبة لها؛ ركعتان خالصتان بين يدي الله عز وجل، وتلاوة ما يتيسر لها من القرآن الكريم، ثم التفنن بالطهو ليسعّد أولادها أفضل من أي شيء آخر على الإطلاق.
وبعد وفاة زوجها؛ تكفلت مؤسسة وقفية في الرياض بمصروفات دراسة شيماء وأخيها فيصل بشكل كامل حتى تخرجت شيماء من قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة الملك عبد العزيز، وبعد عامين استطاعت أيضًا الحصول من ذات المؤسسة على منحة دراسية للحصول على شهادة الماجستير من جامعة بريستول في بريطانيا.

وكذلك فيصل الذي يصغرها بعامين؛ تمكن -بعد الثانوية- من الحصول على منحة لدراسة القانون في ذات الجامعة البريطانية وعبر المؤسسة الوقفية ذاتها.

ولكن وفاة الزوج في سن مبكرة تاركاً لها شيماء وأخيها فيصل في ذلك العمر الصغير جعل منها حساسة وحازمة تجاه بعض الأمور خصوصاً فيما يتعلق بتربية طفليها ودراستهما، وربما كان ذلك سبباً في بناء سور من الاحتياطات الكفيلة بعدم تأذي ولديها بأي شكل كان .

ومن هذا المنطلق كانت رافضة لفكرة خروج شيماء وحدها لمتابعة الدراسة في بلد أوروبي كانت تخشى عليها من المجتمع الغربي المختلف كلياً عن المجتمع الذي عاشت فيه.

ولذلك ورغم وجود أخيها فيصل معها إلا أنها لم توافق على سفرها إلا في حالة واحدة وهي أن تكون موجودة معها أيضاً ومع ذلك فقد اشترطت عليها العودة في حال لم تستطع متابعة دراستها، وهو أمر تم التفاهم والموافقة عليه من قبل المؤسسة الوقفية وبطلب خاص من أم فيصل.

القت شيماء بنفسها على السرير، كانت عيناها تجولان بسعادة على كل ما حولها ولكن دون ان تدرك أي شيء مما تنظر إليه، لأن وعيها كان متعلقاً بالأبنية الحجرية ذات الطابع المعماري المميز التي تضم جامعة بريستول، هناك حيث أصبح حلمها وحلم والدها، بالحصول على الشهادة العليا، جنيناً مكتملاً ينتظر يوم الولادة.

○○○○○

فُتِح الباب مصدراً صريراً مزعجاً... دفعت كريستينا الباب بيدها بينما ظلت واقفة عند العتبة تراقب مكتبها في الجامعة الذي كان مهجوراً على مدى الأشهر القليلة الماضية...

رغم النافذة العريضة إلا أن المكتب بدا على قدر قليل من الإضاءة متأثراً بالغيوم الرمادية التي ملأت السماء في ذلك اليوم حاجبة أشعة الشمس وضياءها...

مرت لحظات ليست بالقصيرة قبل أن تتحرك نحو الداخل بخطوات بطيئة ونظرات متفحصة للمكان، سارت نحو طاولة المكتب ومسحت بكفها عليها وكأنها تمسد فرو حيوان أليف، غير أن تلك اللمسة عملت عمل قارئة الذواكر الالكترونية فعادت بذاكرتها مباشرة إلى اليوم الأول الذي تسلمت فيه مكتبها.

كانت الغرفة مملوءة بأكاليل وسلال الزهور والتي كان معظمها يحمل توقيع والدها، فقد كان ذلك اليوم بالنسبة له يوماً تاريخياً
تذكرت ابتسامته الدافئة وهو يقول لها: من هنا ستكتبين قصتك... قصتك الخاصة التي لا تشبه قصة أي أحد في الدنيا... من هنا ستبنين لنفسك حياة... وستختارين دروبك فيها للوصول إلى وجهتك... للوصول إلى ذاتك...

للحظة فكرت بكل ما حدث لها منذ وفاة والدها وحتى اللحظة التي استفاقت فيها لتجد نفسها في غرفة العناية المركزة!
ما هي نهاية هذا كله؟ ما هي القيمة التي ستقدمها في هذه الدنيا وكيف ستقدمها وهي تشعر بوحدة لا نهائية قاتلة؟
لقد فعلت كل ما بوسعها لكي تتخلص من حياتها إلا أنها أبت أن تفارقها، هل هذه إشارة ما؟ هل هناك ما يجب أن تكتشفه قبل أن تموت؟
هل سيحدث ما تنبأ به والدها قبل سنوات عديدة؟ وهل ستصل إلى

ذاتها التائهة في تلك الدوامة من الخواء الروحي الذي يستلذ بتعذيبها؟ كان رأسها مشوشاً لدرجة أنها تكاد تسمع صوت الصخب الدائر فيه.
وقفت دمعة حائرة على باب جفنها ولكنها سرعان ما مسحتها منفذة الوعد الذي قطعته على نفسها بأنها ستصبح قوية... لن تسمح لأي شيء بأن يحزنها أو يكسرها بعد الآن... لن تخلف وعدها للصغيرة الجميلة روز.
- حسناً لنرَ!!
تمتمت بهذه الكلمات وهي تجول بنظرها في المكان، ثم هزت رأسها بإصرار وألقت بحقيبة يدها على طاولة المكتب قبل أن تستقر على كرسيها الوثير وتشبك أصابع يدها ببعضها وتشد ذراعيها للأمام وكأنها تستعد لمباراة في المصارعة...

فتحت حاسبها المحمول لتتصفح بريدها الالكتروني... كانت قد وردتها عشرات الرسائل المهنئة لها بالسلامة والعودة على العمل، وكعادتها أهملتها كلها وبحثت عن الرسائل الواردة من إدارة الجامعة.

كانت إحدى هذه الرسائل تحمل تكليفاً لها بالإشراف على رسالة ماجستير مرفقاً بملخص البحث الخاص بالرسالة، في البداية ترددت في فتح ملف الملخص، كان ثقب كآبتها الأسود يسيطر على كيانها ويشدها للإحجام عن القراءة، ارتجفت يدها وهي تحاول النقر على الملف، كانت كطبيب جراح يحاول إجراء عملية جراحية بعد انقطاع طويل.

أغمضت عينيها فتراءت امامها صور الأشخاص الذين تحبهم، أبوها... مارغريت... وروز الصغيرة... كانوا جميعاً يحاولون تشجيعها لتأخذ تلك الخطوة وتردد إلى سمعها صدى صوت الصغيرة روز وهي تقول:
- مهما كان ما يحزنك فإنه سينتهي... فقط حافظي على شغفك وتحلي بالأمل.. هذا ما كان يقوله لي أبي.

في النهاية فتحت الملف وبدأت بالقراءة:

"لعبت الأوقاف بتسمياتها المختلفة وصورها المتنوعة دورًا مشهودًا في خدمة التنمية البشرية عبر العصور. وكان للوقف الإسلامي دور هام وريادي في المساهمة في بناء الحضارة الإسلامية والنهضة الشاملة للأمة الإسلامية منذ فجر الإسلام.

وللوقف دور هام في المجتمع، بصفته أحد النماذج الأصلية فيه، بالإضافة إلى شيوع مكارم الأخلاق وانتشار التراحم بين الناس، والحض على التقارب والتعارف بين مكونات الشعوب والمجتمعات، وهو مظهر من مظاهر البر والإحسان والتعاون على الخير، وفيه صلة الرحم ورعاية الذرية بعد موت معيلهم...

ولعل اهتمام الوقف الإسلامي بالتنمية البشرية يتجلى في الأوقاف الخاصة بالتعليم والتدريب المهني للأيتام والمعوزين، أو الساعين على كسب الرزق، وحلقات العلم والجامعات والمدارس والمعاهد، والمصحات العقلية والمستشفيات؛ أو بمعنى أوسع؛ لقد شمل الوقف مختلف جوانب الحياة من بيوت العبادة إلى الأوقاف الخاصةِ بالحيوانات، مثل خيول الحرب الهرمة والمحالة إلى التقاعد إذ توضع في مكان مخصص وتصرف لها الأعلاف وما تحتاج إليه."....

○○○○○

احتضنت شيماء ملف أوراق بحثها ووقفت تتأمل البناء الذي يبدو هاربًا من العصر الفيكتوري بارتفاعه الشاهق والقبة الهرمية الشكل التي تعلو برجه الرئيس، على باب البناء انتصب عمودان رخاميان يحملان لوحة حجرية تضم عدة نقوش تشي بشكل الحضارة التي كانت سائدة في هذه المدينة ذات يوم عندما كانت واحدة من أهم مدن الدولة البيزنطية...
تمتمت ببعض الأدعية التي لقنتها إياها أمُّها قبل خروجها من المنزل، ثم ختمت بقراءة آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين ثم استنشقت نفسًا عميقًا وصعدت الدرج.

كان ذلك اليوم هو المنشود بالنسبة لها، اليوم الذي ستقابل فيه الدكتورة المشرفة على رسالتها، ستعرض عليها الفكرة ليتناقشا بشأنها، ولتبدأ رحلتها نحو الحلم الذي بات يقترب أكثر فأكثر....

مشت عبر الردهة الطويلة المرصوفة بأحجار الرخام كريمية اللون، كان على يمينها صف من النوافذ الواسعة التي تمنح الممر إضاءة مبهرة...
ترقبت الأرقام المدونة على كل باب تمر به، إنها تبحث عن الرقم 35 ومع اقترابها من الرقم المنشود كانت ضربات قلبها تزاد أكثر فأكثر... حتى توقفت أخيرًا مقابل باب ثُبِّتت عليه لوحة ذهبية اللون كتب عليها بخط مزخرف "الدكتورة كريستينا وولفرين"...

○○○○○

وسط ذهول شيماء؛ ألقت كريستينا ملف البحث على الطاولة وهي تنظر إليها بغرابة من خلف نظارتها ذات العدسات الصغيرة:

- قرأت ملخص البحث الذي قدمته، وأظن هذا الموضوع لا يصلح كرسالة للماجستير... يجب أن تجدى موضوعًا آخر بأقصى سرعة! آنسة...

تناولت البحث مرة أخرى لتقرأ الاسم مرة أخرى.

- آنسة شيماء عبدالله.. آخر موعد لتقديم مخطط البحوث هو نهاية العام الحالي.

قالت كريستينا ذلك قبل أن تلقي الملف مرة أخرى وتستدير بكرسيها جزئيًا وتتشاغل ببعض الأوراق المركونة إلى جانب مكتبها العريض.

بخيبة أمل رهيبة تناولت شيماء الملف من على الطاولة وقد اندفع الدم إلى وجهها حتى إن أذنيها أوشكتا أن تنزفا غيظًا ثم قالت بصوت متهدج وأنفاس متسارعة محاولة الدفاع عن بحثها الذي دأبت على تجهيزه مدة طويلة من الزمن.

- عفوًا... ولكن لماذا؟ أنتِ حتى لم تقرأي ما ورد في البحث...

تابعت كريستينا تشاغلها بما حولها وقالت دون أن تلتفت إليها:

- حسب الملخص... ستتحدثين عن جمعيات خيرية موجودة في كل المجتمعات وليس للمجتمع الإسلامي أفضلية في ذلك.

وعادت للنظر إليها من خلف نظارتها.

- هذه رسالة ماجستير يا آنسة وليست حلقة بحث تقدمينها في السنة الأولى من دراستك الجامعية.

لم تتوقع شيماء على الإطلاق أن تتعامل معها الدكتورة المشرفة بهذه الفوقية والتعالي؛ ولذلك فإن نيرانًا من الغضب كانت تتأجج في أحشائها، وفكرت للحظة في أن تنفث مراجل غضبها في وجه تلك السيدة المتعالية إلا أنها آثرت الهدوء، فحملت ملفها وجلست على الكرسي المقابل لكريستينا واستنشقت نفسًا عميقًا ثم قالت بارتباك:

- يبدو أنك لم تفهمي موضوع الرسالة...

رمقتها كريستينا بنظرة حادة وقد شعرت بأن كبريائها قد جرح. فقالت شيماء مستدركة:
- عفوًا... أقصد أن هناك سوء فهم للأمر..
أطلقت كريستينا تنهيدة تنم عن أنها بدأت تشعر بالضيق وقالت بنبرة متبرمة وبشيء من الحزم:
- ليس هناك أي سوء تفاهم يا آنسة... يجب أن تغيري الموضوع... لو سمحت
مرة أخرى كظمت شيماء غيظها وقالت بإصرار ونبرة هادئة:
- دكتورة وولفرين... أتيت إلى هذه الجامعة لمناقشة رسالة الماجستير التي عملت عليها على مدى عامين، ومن المفترض أنك المشرفة على هذه المناقشة، سأعيدها مرة أخرى "المناقشة"، وأنت الآن لا ترفضين المناقشة فحسب بل ترفضين حتى الاطلاع على ما جاء فيها.

تركت كريستينا ما في يدها وأسندت ظهرها إلى كرسيها وهي تحدق بشيماء دون أن تنطق بينما تابعت شيماء كلامها وقد شعرت بأنها بدأت رحلة دفاعها عن أطروحتها جديًا.

- أنا لا أتحدث عن الجمعيات الخيرية... إنني أتحدث عن الأوقاف... أتكلم عن مبحث هائل جدًا في الفكر الإسلامي، حتى إن الجمعيات الخيرية هي أحد أبواب هذا المبحث، أما أنا فاخترت منه جزءًا بسيطًا وهو ما كان مرتبطًا بالنساء فحسب..
قالت كريستينا ببرود.
- وبماذا يختلف الوقف عن غيره؟
- نحن نتحدث هنا عن أمر مختلف تمامًا الوقف هو "حبس الأصل وتسبيل الثمرة"
- لم أفهم!! قالت كريستينا بسرعة محاولة كسب جولة النقاش.
- حسنًا.. الوقف هو اصطلاح في اللغة العربية يطلق على المال الذي يمكن الانتفاع به بشكل مستمر.. فيحبس أصل هذا المال لتحقيق منفعة

مستمرة، بشرط أن يبقى أصل هذا المال مصانًا لا تطاله يد ولا يتصرف به أحد.

ثم أضافت شيماء وهي تضع الملف على الطاولة أمام كريستينا:

- الشرح موجود في الملف لو أنك تتابعين القراءة ستعرفين ما أقصد تمامًا.

دون أن تكترث بالملف أسندت كريستينا ذقنها على راحة يدها مسندة كوعها على الطاولة وقالت مظهرة عدم اقتناعها بكل ما قالته شيماء..

- وواهب المال ماذا سيستفيد في هذه الحالة؟...

- سيكون له أجره وأجر كل من استفاد به أو منه حتى يوم القيامة.

- وما أدراكم بذلك؟

- في القرآن الكريم كتابنا المقدس وأحاديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الكثير من الأدلة على ما أقول، وكما قلت لكِ كلها مذكورة في ملف الرسالة التي سأتشرف لو أنك كنتِ المشرفة عليها.

أطلقت كريستينا تنهيدة وهي تقف من على كرسيها وتستند بكلتا يديها على الطاولة وتميل بجذعها نحو شيماء وقالت بنبرة حادة نسبياً:

- آنسة عبدالله... الأمر ليس شخصيًا ولكنني لا أجد الحديث عن هذا الأمر مناسباً لرسالة ماجستير، على الأقل بالنسبة لي

ردت شيماء بنبرة مشابهة وقد نفد صبرها هي الأخرى

- لو أنك تقرأين البحث دكتور وولفرين، عندها سأقتنع بأن الأمر ليس شخصي.

ضربت كريستينا بيدها على الطاولة بعصبية وقد استفزتها كلمات شيماء

- لقد زاد الأمر عن حده!، إلى ماذا تلمحين يا آنسة شيماء؟!

بينما كانت شيماء تهم بالرد عليها قاطع جدالهما بضع طرقات على باب الغرفة ثم دخلت مارغريت واتجهت مباشرة إلى كريستينا لتحتضنها بسعادة بالغة بادلتها كريستينا العناق بابتسامة باهتة تشي بالغضب الذي يغلي داخل رأسها، ثم التفتت لتناول شيماء ملفها.

- آنسة شيماء كما قلت لك... آخر موعد لتقديم مخطط البحوث هو نهاية العام الحالي، بالإضافة إلى أن تلميحك غير مقبول أبداً، وسأرسل تقريراً

مفصلاً لإدارة الجامعة بما حدث، ليكن بعلمك.

تناولت شيماء ملفها بعصبية وهمت بالكلام إلا أن كريستينا قاطعتها بحركة من يدها.
- هذا يكفي... انتهت المقابلة لو سمحتِ
ثم التفتت نحو صديقتها وتشاغلت بالحديث معها...

حملت شيماء ملفها وخرجت من الغرفة تجر خلفها شعوراً عارماً بخيبة الأمل إضافة إلى بركان من الغضب يتفجر في أعماقها...
استقرت مارغريت في المكان الذي كانت تجلس فيه شيماء وأرسلت نظراتها المتسائلة نحو صديقتها.
- كأن الجو كان متوتراً قليلاً؟ ماذا حدث؟، صوتكما كان عالياً لدرجة أنني سمعته قبل أن أدخل!!
ردت كريستينا بالصمت فقط بينما كانت مارغريت تنظر إلى الباب وكأنها تتذكر شيئاً.

○ ○ ○ ○ ○

رسائل من كريستينا للصغيرة روز

عزيزتي الصغيرة روز...
لا أخفيك أيتها الغالية الصغيرة بأنني ما زلت أجد صعوبة بالغة في الخروج من حالة التعاسة التي تلازمني، الوحدة قاتلة، والخواء الذي يعتريني ينفث سمه في شراييني في كل لحظة ومع كل نفس.
مازلت تائهة وسط ظلام ذاتي رغم المشكاة التي أوجدتها أنت في حياتي؛ ولذلك فقد قررت أن أشاركك بعض تفاصيل هذه الحياة؛ لعلي أتمسك بالأمل الذي جعلتني أبصره من جديد.. فأنت الآن ملهمتي... نعم أنت ملهمتي الصغيرة...

اليوم عدتُ إلى عملي كما وعدتك، واستلمت أول مهمة لي بعد أربعة أشهر من الانقطاع... إنه شعور غريب جدًا!، الجميع ينظرون إليَّ بفضول، أكاد أسمع همساتهم لدى مروري بأي مكان يضم أكثر من شخص واحد.

كُلفْتُ بالإشراف على رسالة ماجستير لطالبة أجنبية... واضطرتني إلى طردها من مكتبي وتقديم شكوىً للإدارة بحقها لأنها أساءت التصرف، أظن أنني أشعر ببعض الندم الآن، ربما أكون قد بالغت قليلاً في ردة

فعلي، ومع ذلك فقد استفزتني كثيراً، لم يكن عليها أن تشكك بحياديتي واحترافي في عملي، لا أدري إلى أين ستؤول الأمور، ما أعرفه هو أن أفكاري ما تزال مشوشة ولا أستطيع التركيز في أي شيء، ولا أعرف فيما إذا كنت سأنجح بالعودة إلى حياتي السابقة، ولكن أعدك بأنني سأحاول بكل ما أوتيت من قوة... أعدك.
أتمنى أن تكوني بخير
صديقتك المخلصة كريستينا.

كانت قد قررت أن تكتب لروز الصغيرة رسائل وهمية تحتفظ بها لنفسها كمذكرات وربما تعطيها يومًا لروز بعد شفائها من مرضها أو هذا ما كانت تمني به نفسها.

أطبقت جهازها المحمول غير قادرة على حبس دموعها، كانت قبل أن تخط كلماتها تلك تهاتف والدة الصغيرة روز وعندها أخبرتها بأن الأطباء سيلجؤون إلى العلاج الكيميائي.

قالت وهي تمسح دموعها بظاهر كفها.
- مسكينة هذه الصغيرة كيف ستتحمل هذا النوع من العلاج؟ ومسكينان والداها أيضًا كيف سيستطيعان تحمل رؤية ابنتهما وهي على هذه الحال؟!
هزت رأسها بعنف محاولةً الهروب من التفكير بالصغيرة المريضة؛ وفتحت جهازها المحمول مرة أخرى بقصد الدخول إلى مواقع التواصل الاجتماعي إلا أنها أصبحت مملة بالنسبة لها أيضًا.

على هذه المواقع ينشر الناس أفراحهم أو أحزانهم في الوقت الذي تجد نفسها عالقة بين الأمرين فلا هي قادرة على مشاركة الناس أفراحهم، ولا هي قادرة على تحمل أحزان أخرى فوق أحزانها.

فجأة؛ أحست وكأن أطرافها تتحول إلى كتل صخرية متيبسة، تملكها

شعور متناقض تمامًا، عندما تخرج إلى العمل أو الطريق كانت تشعر بأن جميع من حولها يرثي لحالها، فتاة غنية جدًا ما تزال صغيرة نسبيًا غير أنها لا تقدر على التمتع بما لديها، وعندما تجلس في بيتها وحيدة تشعر بأنها أصبحت خارج معادلة البشرية تمامًا كصفر غير موقعه من اليمين إلى الشمال فجأة!

أجهشت بالبكاء.. وقد أحست بالعجز إزاء شعورها بالحزن الدائم الذي أضحى على ما يبدو جزءًا من كيانها منذ رحيل والدها، شعرت بأنها عاجزة عن فعل أي شيء.

○○○○○

رن منبه الهاتف الجوال مرة أخرى مصدراً صوتاً بطيئاً ومتواتراً كما لو أنه قد تعب من الرنين والسكوت وحده دون أن يهتم أحد لصوته، كانت شيماء تحدق بسقف الغرفة بذهن غائب، إنها الساعة العاشرة صباحاً، لم تكن قد غادرت فراشها بعد لكنها مستيقظة منذ ساعات طويلة، بل ربما لم تنم إلا قليلاً من الليل

كانت آثار لقائها الأول مع الدكتورة المشرفة على رسالتها ما تزال تجثم فوق صدرها كصخرة صماء...

هل أخطأت؟، هل من الممكن تلافي كل ما حصل؟ ماذا لو أن الدكتورة نفذت كلامها المتعلق بتقديم شكوىً لإدارة الجامعة؟ ما الذي من الممكن أن ينتج عن ذلك؟ هل سأضطر لترك رسالتي التي أعمل عليها منذ فترة؟ هل بدأ الحلم بالتلاشي قبل يبدأ؟ كانت هذه الأسئلة وغيرها الكثير تتشابك في دماغها كأشجار غابة استوائية.

لم يكن ذلك الأمر الوحيد الذي يشغل بالها فقد استذكرت حديثها مع والدتها في اليوم السابق، كانت قد عادت مبكراً إلى البيت بعد صدامها مع الدكتورة المشرفة، ورفضت تناول الطعام بسبب العصبية التي أثرت على معدتها، وهذا كاف بالنسبة لوالدتها ليجعلها تفكر بأن

الأمر بات أخطر مما يجب، وعليها أن تجد حلاً، وإلا فإنها ستعتبر ما تمر به ابنتها فشلاً في دراستها وأمراً يضر بصحتها الجسدية والنفسية ولذلك يجب أن ينتهي على الفور بالعودة إلى السعودية...

قطع شرودها صوت أخيها فيصل يصيح من خارج الغرفة منادياً عليها مع عدة طرقات على الباب، نهضت بسرعة واستقرت جالسة على سريرها قبل تهتف:

- تفضل

كان صوتها مشوباً ببحة خفيفة تحت تأثير الصمت الطويل، أطل فيصل برأسه من خلف باب الغرفة راسماً ابتسامة عريضة على وجهه وقال بود:

- هل أيقظتك؟

لملمت شيماء جلستها مرة أخرى وبادلته الابتسامة

- أبداً... تفضل ادخل

دلف فيصل إلى الغرفة واستقر جالساً على كرسي بالقرب من السرير

- تطلب الأمر عدة مرات من الطرق على الباب! ولم تردي حتى رفعت صوتي لأناديك

- آسفة... كنت شاردة بعض الشيء

- هذا بالضبط ما أتيت للحديث بشأنه معك! سمعت من أمي أن لقاءك مع الدكتورة المشرفة لم يكن على ما يرام

في تلك اللحظة دخلت الأم حاملة فنجانين من القهوة وقدمتهما لولديها قبل أن تقول بعتب

- لقد طردتها من مكتبها ورفضت بحثها، لو كنا في بلدنا لعرفنا كيف نتصرف في وضع كهذا، ولكن ما باليد حيلة! نحن غرباء هنا

متسائلاً نظر فيصل باهتمام إلى شيماء التي أطلقت تنهيدة وأطرقت رأسها وقالت موضحة:

- تقول إنها غير مناسبة، تبادلنا استفزاز بعضنا بعضاً، حتى انتهى الأمر على ذلك النحو... وقالت بأنها ستتقدم بشكوى لإدارة الجامعة

ظهرت علامات الدهشة والاستياء على وجه فيصل الذي تناول رشفة من فنجانه وصمت قليلاً قبل أن يقول:
- لا يبدو الوضع جيداً، إذا علمت لجنة المنح في المؤسسة بأمر هذه الشكوى قد تحرمين من المنحة.

اكتفت شيماء بهز رأسها في صمت فهي تعرف أن ما قاله فيصل صحيح، حينها شعرت برغبة عارمة بالبكاء فأخفضت رأسها محاولة إخفاء عينيها اللتين كادتا أن تمطرا كسحابة شتائية غاضبة...
ولكن فيصل تابع كلامه دون أي تفكير
- حسناً، فلتغيري موضوع البحث كما طلبت المشرفة.

أشاحت بوجهها جانباً في محاولة أخرى لإخفاء دموعها التي بدأت بالتحدر على خدها لدى سماعها اقتراح فيصل ثم التفت إليه باكية وقالت:
- لماذا؟ لماذا أغير موضوع البحث؟ أنا متأكدة بأن بحثي يستوفي شروط رسالة الماجستير، بل وسيكون من أفضل البحوث التي ستقدم هذا العام،

وبينما كانت الأم تتابع ابنتها بوجه بائس حزين تابعت شيماء
- ومن ناحية أخرى هل نسيت أننا هنا نتابع دراستنا بمنحة وقفية؟ ألا يستحق ذلك بعض الوفاء؟ ثم ناهيك عن أي شيء آخر أنت تعرف أنها رسالتي التي أحملها منذ أن بدأت أعي ما يدور من حولي، لقد درستها من جميع الجوانب، حتى إنني فصلت في أدلتها الشرعية في مصادر التشريع الإسلامي لأنني أريد أن يتعرف العالم كله على الأوقاف النسائية في الإسلام وعلى دور النساء المسلمات وإسهامهن في تشكيل الوضع الاجتماعي والعلمي والاقتصادي وحتى المعماري في المجتمع الإسلامي.

يجب أن يعرف العالم أنهن كن دائمًا إلى جانب الرجال في مختلف جوانب الحياة على مر التاريخ الإسلامي، وأنهن لم يكن مغيبات ولا

متواريات في الظل، وأن براعتهن في هذا المجال تحتم علينا إبرازها ودراستها بشكل مستفيض، يجب أن يعرف العالم أن كل التهم الموجهة للإسلام بامتهان المرأة وسلب حقوقها هي افتراءات باطلة، وبحثي هذا هو أحد الأدلة الدامغة على ذلك.

شعر فيصل بأنه لمس باقتراحه نقطة حساسة في حياة شيماء كانت قد ركزت جهدها العلمي والعملي لإظهارها، ولذلك انبرى ليجد حلاً آخر يسعف به أخته.

- إذاً عليكِ أن تقنعي المشرفة بالاطلاع على البحث، وبالطبع يجب أن تعتذري عما حصل خلال المقابلة لتتجنبي عقوبة إدارة الجامعة...

أسندت شيماء جبينها إلى كفيها وأطلقت تنهيدة طويلة تنم عن الهم الذي بات يملأ صدرها.

○ ○ ○ ○ ○

عزيزتي الصغيرة روز...
أرجوك كوني بخير وتحملي ما ينتظرك في قادم الأيام، قد تعانين من آلام مبرحة وقد تفقدين شعرك ولون خديك الوردي، قد تفقدين كل ذلك؛ لكن أرجوك لا تفقدي ابتسامتك ولا الأمل اللذين قابلتني بهما به أول مرة... أرجوك.

أما أنا فلم أستطع التقدم كثيراً، لا زلت أعاني رغم محاولاتي الحثيثة، آسفة إن كنت اخذلك أو أخيب أملك.

منذ أسبوعين وأنا أرفض مقابلة الطالبة الأجنبية التي حدثتك عنها في رسالتي السابقة متذرعة بذرائع عدة،
لا أعرف إن كان ما أقوم به هو التصرف الصحيح ولكنني ما زلت حانقة، ليس سهلاً بعد كل ما مررت به أن أتقبل اتهاماً كالذي وجهته لي طالبة أجنبية مبتدئة، كبريائي مجروح وأشعر بالإهانة.

أحياناً أفكر في أني قد أكون خائفة، لا أريد أن يتكرر الموقف ذاته مرة أخرى، أحاول أولاً أن أستعيد سلامي الداخلي من خلال الزمن، يقول جيفري تشوسر[1]: الوقت يداوي كل الجروح، وأنا قررت أن أتريث قليلاً أريد لجرحي أن يندمل قبل أن أقابلها مرة أخرى لعلنا نجد طريقة أخرى للتواصل في المرة القادمة.

بالتأكيد سأطلعك على أي تطورات قد تحدث
مرة أخرى كوني بخير أرجوك
صديقتك المخلصة كريستينا...

○○○○○

(1) شاعر إنجليزي عاش في القرن 14 يُعدّ أبرز الشعراء الإنجليز في العصور الوسطى، قبل عهد شكسبير، وأكبر الشعراء الهزليين في تاريخ الأدب الإنجليزي. لقب بأب الشعر الإنجليزي، ويُعدّ من أقدم الشعراء الإنجليز المعروفين

- أرجوك يا أمي... لا يمكنني أن أترك المنحة وأعود إلى السعودية لمجرد أني اواجه بعض الصعوبات هنا،

قالت شيماء متوسلة لأمها بعد حديث مطول بين الاثنتين حاولت خلاله الأم إقناع ابنتها بالتخلي عن المنحة طالما أنها تسبب لها المتاعب والألم النفسي الذي تراه كل يوم عينيها.

حدث النقاش عندما دخلت الأم إلى الغرفة لتجد شيماء تقرأ كتاب التنبيه شديد اللهجة الذي وجهته لها إدارة الجامعة ورأت الانزعاج الذي كان بادياً عليها بسببه...

كانت قد عادت للتو من الجامعة رغم أن الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً، الإحباط الذي أصابها لحظة تلقي التنبيه جعلها تعود مباشرة إلى البيت... لم تتوقع أبداً أن الأمر سيتجه بهذا المنحى... كانت قد استدعيت قبل أيام من قبل إدارة الجامعة وأقرت بكل ما حدث وفق الشكوى التي قدمتها كريستينا وقدمت اعتذاراً شفهياً للإدارة وتعهدت بأنها ستعتذر من المشرفة أيضاً بسبب سوء التفاهم.

كانت تعيش حالة اضطراب مزمنة منذ اليوم الذي طردت فيه من مكتب مشرفتها، وغالباً ما كانت عابسة الوجه شاردة الذهن فهي المرة الأولى -خلال فترات دراستها- المختلفة التي تتلقى فيها عقاباً من أي نوع ولم تتعرض لموقف كهذا من قبل!، لطالما كانت الفتاة المجتهدة التي تلقى الثناء على إتقانها لكل ما تقوم به، كانت متفوقة في دروسها دائماً ومحبوبة من الجميع ولذلك كان أثر ذلك الموقف عليها شديداً.

وما زاد الأمر سوءاً أنها لم تستطع مقابلة المشرفة بعد ذلك، مر أسبوعان كاملان باءت خلالهما كل محاولاتها للقاء بها بالفشل ولذلك لم تستطع تدارك الأمر مع المشرفة، كانت تشعر في قرارة نفسها بأن

المشرفة تتجنب محادثتها أو لقاءها استناداً على الذرائع الواهية المقدمة في كل مرة لرفض طلب اللقاء
تحدرت دمعة مقهورة من عينها وهي تقرأ كتاب التنبيه للمرة العاشرة ربما... كانت تحدث نفسها بأن عليها بعد الآن البحث عن موضوع جديد لرسالة الماجستير، بات الأمر واضحاً.

كل ذلك جعل من شيماء في غاية الحساسية والتوتر ولذلك فقد ضاق صدرها من ضغط والدتها عليها ومطالبتها لها بالانسحاب تجنباً لأي مضاعفات أخرى قد تكسر قلبها أو تصيبها بالإحباط.
وكانت حجتها دائماً أن مجتمعاً مختلفاً عن مجتمعها في كل شيء لن يكون مناسباً على الإطلاق لخوض أي تجربة مهما كانت بسيطة فما بالك بشهادة عليا؟

بالنسبة للأم كانت الطريقة التي تدافع بها عن ابنتها وتحميها بها وفقاً لغريزة الأمومة هي الابتعاد والعودة على الأصل، إلى المجتمع الذي نشأت فيه شيماء هناك حيث كانت المبدعة دائماً والمتفوقة دائماً والأهم من ذلك بالنسبة لها المحمية دائماً بحكم عادت وتقاليد ومثالية المجتمع من وجهة نظرها..

تركت شيماء كتاب التنبيه على طاولتها وخرجت لتستنشق هواءً نقياً بينما شيعتها أمها بنظرات مختلطة ما بين الرثاء لحالها والإصرار على تخليصها من مشاكلها...

هامت على وجهها متجولة في شوارع بريستول، راقبت الناس والأسواق علها تستطيع الخروج من الحالة التي وصلت إليها بعيداً عن تلميحات أمها التي غالباً ما كانت تزيد من توترها... مشت كثيراً كانت تفكر بحل لمشكلتها مع مشرفتها إلا أن ذكاءها وفطنتها لم يسعفاها هذه المرة...

رمت نفسها على كرسي في إحدى الحدائق العامة وقد أنهكها التعب، أغمضت عينيها واستعادت بمخيلتها كل ما حدث، ما تزال لا تصدق كيف تطورت الأمور إلى ذلك الصدام الذي أدى إلى طردها؟

استعادت كل الحديث الذي جرى منذ لحظة دخولها، عندما قرأت اسم المشرفة على الباب، للحظة تثبتت ذاكرتها عند اللوحة التي دون عليها الاسم، أعادته ببطء "كريستينا وولفرين"، وبحركة خاطفة أخرجت هاتفها المحمول وفتحت محرك البحث ودونت الاسم عليه وغاصت بين صفحات الإنترنت...

مع نهاية النهار كانت شيماء تجلس بالقرب من النافذة متعبة وكئيبة، كانت تنظر إلى الأفق الرمادي والهدوء الذي يعم المدينة ولكنه ينذر في الوقت نفسه بعاصفة قادمة، بينما كان جو المنزل يفوح برائحة الكعك الذي أصرت أمها على خبزه من أجلها...

كانت شيماء في قرارة نفسها تخشى أن تكون والدتها على حق، على الرغم من أنها لا تستسلم بسهولة ولا يمكن أن تفكر بهذه الطريقة غير أن الأحداث الأخيرة جعلتها تفقد الثقة بنفسها، وهو أمر جعلها تزداد توتراً خصوصاً وأن كبريائها يمنعها من الاعتراف بهذه الحقيقة!

ولكن من جهة أخرى فقد شعرت بهدوء غريب في المنزل، فقد توقفت أمها عن تلميحاتها ومحاولاتها لإقناعها بالعودة، فكرت في أنها ربما تخلت عن الفكرة بعد الإصرار الذي أبدته لها، أو ربما يكون فيصل قد تحدث إليها لتكف عن الضغط عليها، على كل حال ما يهمها كان هو أنها لم تعد تحت الضغط على الأقل من جانب أمها...

○○○○○

فتحت كريستينا عينيها فوجدت نفسها تحتضن الكتاب الذي كانت تقرأه كعادتها بعد ظهر كل يوم على كرسيها الهزاز، يحدث أحياناً أن تنام أثناء القراءة لكن تلك الغفوة كانت مختلفة، اعترتها لحظة استيقاظها مشاعر مختلفة تحت تأثير الحلم الذي راودها خلال الفترة القصيرة التي نامتها كان حلماً غريباً رأت فيه والدها يمسك يدها ويقطع معها طريقاً موحشاً، وفجأة يظهر نور مبهر أمامهما فيسيران باتجاهه حتى تظهر أمامهما امرأة غير واضحة الملامح، وهناك يتركها الأب ويعود أدراجه وهو يردد "اتبعي قلبك" دون أن تفلح محاولاتها لإقناعه بالذهاب معها، ومع يأسها تشعر بيد المرأة تمسك يدها وتسحبها بسرعة لتصل أخيراً إلى مكان في غاية الروعة والجمال، مكان أشبه ما يكون بالجنة...

انتفضت من على كرسيها... تلفتت... دارت حول نفسها... عادت لتجلس على الكرسي مرة أخرى، لم يغب والدها عن أحلامها منذ أن توفي ولكنها المرة الأولى التي يفعل فيها ما فعله في هذا الحلم...

كانت أفكارها مشوشة لا تدري حقيقة شعورها، تارة تشعر بالارتياح والبهجة وتارة أخرى تشعر بالخوف والانقباض، وبعد دقائق من التفكير والشرود خرجت إلى الشرفة لتلفح وجهها نسمة باردة إلا أنها كانت كفيلة بإزالة الضيق الذي استولى عليها، وقفت على الشرفة وراحت تتأمل الأفق الرمادي الذي ينذر بعاصفة قادمة...

○○○○○

- إنه مجرد حلم...

هتفت مارغريت وهي تنظر إلى كريستينا التي بدت ساهمة النظرات محاولة إزالة ما خلفه ذلك الحلم من حيرة لديها وتابعت:

- عندما كلمتني ظننت أن مكروهاً أصابك!!

هزت كريستينا رأسها بشرود وصمتت لحظة قبل أن تقول

- ربما... ولكنه أثر بي أكثر من أي مرة

ثم نظرت إلى وجه مارغريت وقد بدا أنها استفاقت للتو من الحلم
- هل أبدو سخيفة؟!
ارتبكت مارغريت وشعرت بأنها بالغت بردة فعلها
- لا... لم اقصد ذلك... لماذا تقولين هذا؟
- لا أدري... أحاول أن أستعيد توازني، لقد وعدت روز، ولكنني أفشل في كل مرة!
قامت من مكانها ومشت عدة خطوات قبل أن تلتفت مرة أخرى إلى مارغريت وقالت بحيرة
- اكتشفت الآن أن ما بعثر داخلي وهز كياني هو مجرد حلم، وقبلها طردت إحدى طالباتي من مكتبي وقدمت شكوى بحقها وتسببت لها بتنبيه شديد اللهجة! وهي تحاول مقابلتي منذ أسبوعين وأنا أختلق الأعذار كي لا أراها، بغض النظر عن النقاش الذي دار في ذلك اليوم! هل يستحق الوضع كل هذا؟

صمتت مارغريت ورفعت حاجبيها لتتجنب الإجابة، فاقتربت كريستينا منها ورفعت صوتها قائلة:
- قولي، هل هذا التصرف يليق بي؟
تنهدت مارغريت تنهيدة طويلة قبل أن تقول:
- تقصدين الفتاة التي صادفتها في مكتبك وقد احتد النقاش بينكما؟ إذا كان الأمر كما شرحت لي فأظن أنها تستحق فرصة، لا يمكنك أن ترفضي بحثاً كاملاً بناءً على الملخص، تعرفين ذلك جيداً.

أمسكت كريستينا رأسها بكلتي يديها ودارت حولها نفسها وكأنها تكاد أن تجن
- نعم أعرف ذلك جيداً... ولكنني مشوشة، بالكاد أتقبل عودتي إلى العمل، ولا أريد أن أستهل هذه العودة بالإشراف على بحث بعيد عن حياتي وفهمي ويتعلق بأرض وثقافة لا أنتمي إليها ولا تشبهني في شيء، لست مستعدة لخوض تجربة كتلك، لا أريد...

بطرف عينيها ألقت مارغريت نظرة عتاب
- وهذا أيضاً ليس سبباً للرفض، أنت بذلك تبتعدين كلياً عن المهنية والاحترافية في العمل، هذا المكان صرح علمي يستطيع الجميع أن يقدموا رؤاهم ورسائلهم طالما أنها في حدود العلم، ولذلك يجب أن تطلعي على البحث قبل أن ترفضيه.

أسندت كريستينا جبيها إلى كفيها وهي تهز إحدى رجليها بتوتر واضح ثم وجهت نظرة حازمة لمارغريت وقالت:
- لا أريد... ستغير موضوع الدراسة، أو سأطلب من إدارة الجامعة نقل أمر الإشراف على رسالتها إلى زميل آخر.

أطلقت مارغريت تنهيدة طويلة وهي تضع كفها على جبينها كإشارة على أنها استسلمت ولم تعد تريد متابعة النقاش، ثم ساد الصمت بينهما لثوانٍ قبل تهتف مارغريت.
- هناك شعور غريب في داخلي تجاه هذه الفتاة منذ أن رأيتها في مكتبك، أشعر وكأني أعرفها من مكان ما!

تبدلت نظرة كريستينا لصديقتها إلى أخرى مليئة بعلامات الاستفهام ولكن مارغريت ردت بحركة من يديها وقلبت شفتها السفلى مجيبة بإيماءتها تلك على كريستينا بأنها لا تعرف....

○○○○○

لمعت السماء بشدة فأضاءت غرفة شيماء بوميض ساطع لتظهر وهي ساجدة مستقبلة القبلة وقد غطاها رداء الصلاة بشكل كامل فبدت ككومة من القماش وسط الغرفة... بعد لحظات دوى هدير رعد هائل ينبئ بعاصفة مطرية شديدة...

طال سجودها قليلًا قبل أن ترفع رأسها للقعود الأخير، أبرقت السماء مرة أخرى فظهر وجهها مبللًا بدموع كانت قد ذرفتها أثناء السجود، لم تلبث أن أنهت صلاتها بالتسليم ثم رفعت يديها إلى السماء تدعو الله عز وجل.

لم تكن تلك المرة الأولى، فقد اعتادت دائمًا أن تصلي في جوف الليل مرة أو مرتين أسبوعياً، كانت تلك وسيلتها الدائمة للخروج من حالات الاكتئاب والضغط النفسي التي تمر بها أحياناً .

فجأة رن هاتفها الجوال معلنًا وصول رسالة جديدة، تبعتها رسالة أخرى، تجاهلت الأمر ريثما تنتهي من عبادتها رغم أن بالها أصبح مشغولًا بهوية المتصل فهي لم يمضِ على وجودها في بريستول أكثر من شهر واحد ولم تتعرف بالكثير من الناس ولذلك فقد اقتصر استخدام هاتفها على أمها وأخيها وصديقتيها في السعودية اللتين لا تعرف غيرهما..

مسحت دموعها ثم نهضت من مكانها وتناولت هاتفها وهي تجلس على طرف سريرها، أدهشها أن الرقم الذي وصلت منه الرسائل غير محفوظ لديها ولكنه محلي، فتحت الرسائل على عجل وقد انتابها الفضول.
آنسة عبدالله دعينا نلتقي غدًا عند الواحدة من بعد الظهر في مكتبي..
وذيلت الرسالة بـــ د. وولفرين.

الدكتورة وولفرين؟ تساءلت في نفسها وهي تعيد قراءة الرسالة مرة أخرى.

ولكن كيف استدلت على رقم هاتفي؟ استدركت مرة أخرى وقد نما الشعور بالدهشة بداخلها.

تعلقت عيناها بنقطة ثابتة كما لو كانت محنطة وهي تحدث نفسها: "ربما وصلت إليه من الملف التعريفي الذي قدمته للجامعة... وفيه بالتأكيد كل معلوماتي الشخصية ووسائل التواصل معي من الإيميل ورقم الهاتف وغيرها...

لم تستطع شيماء النوم في تلك الليلة، أعادت قراءة الرسالة عشرات المرات، توقعت آلاف الاحتمالات للحديث الذي من الممكن أن يدور بينهما، ولكنها لم تكن متفائلة كثيرًا بناءً على المقابلة الأولى التي جرت بينهما.

راحت تضع جوابًا لكل احتمال من الاحتمالات التي توقعتها.. المهم ألا يتم إلغاء موضوع رسالتها، ليس لأن الوقت سيكون ضيقًا جدًا لاختيار موضوع آخر والعمل عليه فحسب؛ بل لأن هذا الموضوع بالذات هو ما تريد العمل عليه والحصول على شهادتها من خلاله.

وبعد سهد قرَّح عينيها خلصت إلى حل أخير غير قابل للتراجع وهو أنها ستطلب نقل أمر الإشراف إلى أستاذ آخر، ولكن ماذا لو تعذر الوصول إلى حل ماذا ستفعل؟ هل ستترك قضيتها ورسالتها؟ حاولت جاهدة عدم التفكير بهذا الاحتمال لأنه سيكون مؤلماً للغاية بالنسبة لها...

○○○○○

- الفطور جاهز...
هتفت شيماء وهي تضع آخر طبق في يدها على الطاولة وتعود إلى المطبخ مرة أخرى...
في الركن كانت أمها جالسة وقد أنهت للتو صلاة الضحى، رفعت يديها وتمتمت ببعض الأدعية قبل أن تنهض من مكانها، عادت شيماء حاملة إبريق الشاي لتضعه على الطاولة ثم قبلت يد أمها ونادت على فيصل وهي تسحب كرسياً لتجلس عليه.

استقرت على كرسيها وناولت أمها قطعة خبز ثم استسلمت لشرودها... كانت هادئة كعادتها في الأيام الأخيرة ولكن وجهها هذه المرة كان يشي بتطور ما فالهالات السوداء تحت عينيها هي دليل واضح على أنها لم تنم ليلتها بشكل جيد..
مبتسماً خرج فيصل من غرفته ملقياً تحية الصباح على أمه وأخته وبينما ردت الأم تحيته كانت شيماء ما تزال ساهمة في أعماق أفكارها...
تبادل فيصل وأمه النظرات وكان فيصل بنظراته يسأل أمه عما أصاب شيماء ولكن الأم ردت برفع كتفيها بأنها لا تعرف قبل أن تتنهد وترمق ابنتها بنظرات عتاب وهي تهز رأسها بأسف.
وفي محاولة منه لتلطيف الجو قال فيصل:
- هاااا... كيف هي أحوال الجامعة؟
- بخير...
قالت شيماء مكتفية بابتسامة مصطنعة وهي تنظر إلى أمها بطرف عينيها نظرات خاطفة.
صبت كأساً من الشاي في محاولة منها لكسب الوقت لتحضير الإجابات لأمها، فقد كانت متأكدة بأنها لن تفوت فرصة كهذه للحديث عن عدم جدوى الدراسة في الخارج وضرورة العودة إلى الوطن...
وما أثار استغرابها هو أن أمها التزمت الصمت تماماً رغم استمرارها بإلقاء نظرات العتاب على ابنتها قبل أن تغادر الطاولة حامدة الله عز وجل على نعمه... حدثت نفسها هل تراها مريضة؟ ليس من عادتها أن تلتزم كل هذا الصمت!

ورغم قلقها على صحة والدتها إلا أنها تنفست الصعداء معلنة عن ارتياحها إذ أنها لم تكن مستعدة لخوض أي نقاش جديد مع أمها في الوقت الذي تعد فيه عقلها للمعركة القادمة بعد ظهر ذلك اليوم مع المشرفة والتفكير فيما سينتج عنها، كانت تشعر بانقباض في قلبها كلما فكرت بالأمر خصوصاً وأنها كانت تستشعر هزيمتها الحتمية ورضوخها لقوة وسلطة المشرفة...

○○○○○

رسمت كريستينا ملامح الحزم والجدية على وجهها وهي تشير بيدها نحو الكرسي طالبة الجلوس من شيماء التي لم يكن وجهها أقل حزماً وجدية والتي بدت لكريستينا بلباسها الفضفاض وحجابها الإسلامي في غاية الأناقة.

استقرت شيماء على طرف الكرسي وقد وضعت ملف الرسالة على ركبتيها دون أن تنطق بأي كلمة...
تظاهرت كريستينا بالعمل على حاسبها المحمول لبضع ثوانٍ قبل أن تلتفت إلى شيماء وتنظر إليها من تحت نظارتها في صمت
- أظن أن كتاب التنبيه قد وصلك
دون أن تتكلم هزت شيماء برأسها إيجاباً بينما تنحنحت كريستينا ومنحت صوتها رخامة واضحة كدليل على الجدية الكبيرة
- كان من المهم أن تعرفي يا آنسة أن العلاقة التي أنشئها مع طلابي هي علاقة احترافية ولا تدخل فيها الأمور الشخصية على الإطلاق، هي علاقة أستاذ وطالب مبنية على الاحترام المتبادل، هذا هو نص القاعدة هل هذا مفهوم؟!
أجابت شيماء بذات الحركة ولكنها رسمت هذه المرة ابتسامة مصطنعة على وجهها.
وبارتباك واضح أزالت كريستينا النظارة عن وجهها وتجنبت النظر إلى وجه شيماء مباشرة وهي تقول:

- لم أرد أن تتلقي إنذاراً شديد اللهجة، ولكن كان لا بد لإدارة الجامعة أن تتخذ إجراءً بعد الشكوى التي قدمتها، ولم يكن بالإمكان سحبها أو إلغاؤها...

شكرتها شيماء على كلامها الذي بدا ودياً رغم التجهم والجدية الطاغية على وجهها والذي استشفت من ورائه أنها ربما تمهد لرفض البحث مرة أخرى
- وانا أيضاً أعتذر عن انفعالي وكلامي لك... ارجو أن تسامحيني، واسمحي لي أن أقدم تعازي لك بوفاة والدك
رمقتها كريستينا بنظرة استغراب، فبادرتها شيماء وقد فهمت سبب استغرابها
- قرأت بعض الأخبار على شبكة الإنترنت! وسمعت البعض هنا يتحدثون عن ذلك
مرة أخرى هربت كريستينا بنظراتها وقد أصابت شيماء جرحها الرطب بحفنة من الملح، حاولت حبس دموعها التي تزاحمت على جفنيها وقالت بصوت مخنوق
- شكراً لك، ولكن هذا الأمر شخصي جداً، دعينا لا نخوض فيه، ثم إنه انقطع عن الدنيا ولن تفيد التعازي أو الأحزان.
- آسفة... ولكن قد يفيده دعاؤك له
حل صمت طويل بين الاثنتين، لم تعرف أي منهما كيف سار بهما الحديث بهذا الشكل غير المتوقع وكان صمتهما تعبيراً صارخاً على مدى دهشتهما، حاولت شيماء كسر ذلك الصمت قائلة:
- في ديننا هناك حديث لرسول الله يقول فيه: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"

أصابت كلمات شيماء الأخيرة كريستينا بشيء من الذهول، كانت المرة الأولى التي تسمع فيها كلامًا كهذا، كيف يمكن للإنسان أن يستمر في عمله حتى بعد موته؟! أشعل طرح كهذا تنور فضولها

ولكنها أعادت ارتداء نظارتها وقالت لها مظهرة عدم الاكتراث بما قالته لها:
- حسناً ستغيرين موضوع رسالتك، أو سأكون مضطرة للطلب من الإدارة لتحويلك إلى زميل آخر، وربما يرفض طلب كهذا، في هذه الحالة ستكونين أمام خيار وحيد هو التغيير، ولهذا أرسلت في طلبك
شعرت شيماء بأن المعركة التي تحضرت لها طوال الليل قد بدأت وأن المشرفة قد بدأت هجومها الأول
- في هذه الحالة سأختار الخيار الثاني، مع التأكيد على احترامي الشديد لحضرتك
رفعت كريستينا كتفيها ولسان حالها يقول "كما تريدين"، ثم تناولت سماعة الهاتف وتكلمت من خلالها لمدة دقيقتين أو أقل بقليل قبل أن تغلقها مرة أخرى وتصعق شيماء بالخبر اليقين
- أنا آسفة... لم توافق الإدارة على نقل ملف الإشراف إلى زميل آخر، الأمر ليس متاحاً حالياً...

شعرت شيماء بأن قلبها قد سقط من مكانه، إنها نهاية الحلم، ليس حلم الماجستير، بل حلم رسالتها وقضيتها المتعلقة بأوقاف النساء ودورها في بناء المجتمع الإسلامي....

○○○○○

علا هدير مكبرات الصوت في القاعة الرئيسية لمطار بريستول معلناً عن رحلة الخطوط الجوية العربية السعودية المتجهة نحو الرياض وموجهاً نداءً لركاب الرحلة للاستعداد للتوجه إلى بوابات الدخول إلى الطائرة...

أثار الصوت أشجان شيماء التي كانت جالسة تنتظر هذا النداء منذ أكثر من ساعة، فسالت العبرات على وجنتيها وكأن كلمات ذلك النداء قد حركت رماد حزنها القابع في أعماق صدرها وأذكت جذوته التي استعرت من الجهة التي لم تكن تتوقعها، من المكان الرخو والأكثر ضعفاً في حياتها...

كان قد مر أسبوعان فقط على اللقاء الذي جمع بينها وبين الدكتورة كريستينا ولفرين وكانت قد بدأت ترسم أفقاً ورديا لحلمها القديم، كانت تمني النفس بتجاوز آخر العقبات التي كانت طريقها لتحقيقه ولكن الأمور لم تجرِ كما اشتهت... اسبوعان فقط كانا كافيين لوضع حد للأمل والوصول إلى النهاية...

طوال انتظارها كانت تفكر بكلمات جبران خليل جبران التي يقول فيها بتعبير مجازي
" إن الإنسان لا يموت دفعة واحدة وإنما يموت بطريقة الأجزاء، كلما رحل صديق مات جزء، وكلما غادرنا حبيب مات جزء وكلما قتل حلم من أحلامنا مات جزء فيأتي الموت الأكبر ليجد الأجزاء كلها ميتة فيحملها ويرحل"

كانت تفكر كم ينطبق كلام جبران عليها في ذلك اليوم، إنها تشعر تماماً بأن جزءاً من أجزائها قد مات...

فتحت هاتفها الجوال فرأت على شاشته صورتها التي تجمعها بوالدتها وقد التصق وجهاهما ببعضهما البعض، لم تستطع تمالك نفسها

فغطت وجهها بكفيها وأجهشت ببكاء مرير، لم تكن تتوقع أنها ستندم على صمت والدتها بهذا الشكل!

تمنت لو أنها استمرت في إلقاء تعليقاتها وتلميحاتها ومحاولات إقناعها بالعودة
اشتد بكاؤها ونشجت، كيف استطعت أن تفعلي ذلك بي يا أمي؟ كيف تفعلين ذلك بعد أن أوشك الحلم على التحقق؟ ها أنا ذا الآن أعود إلى الرياض وقد مات جزء مني، سامحك الله يا أمي سامحك الله...

رفعت وجهها المبلل بالدموع ونظرت إلى الساعة أين هو فيصل؟ سيتأخران على الرحلة!، حاولت الاتصال به لكن هاتفه كان مغلقاً، لم تجد بداً من البقاء وانتظاره في القاعة الرئيسية...

أثناء محاولتها إعادة الهاتف إلى حقيبة يدها وجدت مخطوط رسالة الماجستير خاصتها تأملته لبرهة مستعيدة ذكريات الأسبوعين الماضيين وكيف تحولت حياتها رأساً على عقب...

○○○○○

- هل للحديث الذي ذكرته قبل قليل عن رسولكم علاقة بموضوع الرسالة؟
كانت شيماء تهم بالخروج من مكتب مشرفتها وقد داهمها اليأس من عدم تغيير موضوع بحثها عندما ألقت كريستينا سؤالها ذاك...

توقفت شيماء ومسحت دموعها التي فاضت بعد أن قررت كريستينا أنها يجب عليها أن تغير موضوع الرسالة، ثم استدارت نحوها وهزت رأسها بالإيجاب
قالت كريستينا باهتمام وقد جال أبوها في خاطرها
- ما هي هذه العلاقة؟
- الوقف أساساً هو صدقة جارية، وهو كل عمل يبقى نافعاً لبني آدم حتى بعد وفاة صاحبه، أي من الناحية العملية نفس مبدأ حبس الأصل وتسبيل الثمرة ليستفيد منها العامة
- وكيف يكون مستمراً حتى بعد الموت؟
- طالما أن الناس تنتفع بما قدمه ذلك الإنسان فإنه ينال الأجر عن كل من ينتفع به، وهو كذلك حتى يوم القيامة، عندها تخيلي كم من الأجر والحسنات يكون صاحب الوقف أو الصدقة الجارية قد جمع؟!
- وأوقاف النساء تعتمد على هذا المبدأ أيضاً
- الوقف واحد سواء كان من أوقفه رجلاً او امرأة، ولكنني أردت أن تكون رسالتي عن أوقاف النساء لأظهر ريادتهن في هذا المجال ودورهن في تنمية المجتمع المسلم على مر العصور

صمتت كريستينا بعض الوقت، كانت ساهمة شاردة، فكرت فيما قالته مارغريت لها من أن الفتاة تستحق فرصة، كما فكرت من ناحية أخرى هل يمكن أن تهدر تعب هذه الفتاة فقط لأنها -كمشرفة- تمر بفترة مزاجية سيئة في هذه الفترة؟
رغم أن موضوع الصدقة الجارية قد أثار شيئاً من اهتمامها لأجل والدها إلا أنها ما تزال تجد صعوبة في تقبل الأمر...

تجاذبتها الأفكار جيئة وذهاباً "لن أستطيع" قالت لنفسها محاولة إقناعها بالعدول عن فكرة مناقشة هذه الرسالة، ثم أصرت على أن تفعل وقد تذكرت الصغيرة روز

وبينما هي كذلك تذكرت أن شيماء ما تزال واقفة فأشارت لها للجلوس على الكرسي مرة أخرى، في تلك الأثناء كان قلب شيماء يضرب أضلاع صدرها بشدة، كانت واقفة على حافة حلمها تنتظر إما الوصول إلى قمة النجاح أو السقوط في هاوية الفشل وكان ذلك متعلقاً بكلمات تنطق بها مشرفة رسالتها التي أصبحت المتحكمة بهذا الأمر وحدها ودون أي منازع...
- حسناً... سأجرب أن أقرأ الملف
قالت كريستينا بعد صمت قصير خالته شيماء نصف دهر...

رسمت شيماء ابتسامة عريضة على وجهها وقفزت عن كرسيها مصدرة صوتاً صاخباً ينم عن مدى السرور الذي أدخله كلام كريستينا إلى قلبها ولكنها سرعان ما تداركت نفسها وعادت لتجلس مكانها معتذرة بخجل، ولكن كريستينا أردفت مباشرة
- ولكن هذا لا يعني أنني قبلت به، أفعل ذلك حتى أكون قد حققت المبادئ الأخلاقية التي تفرضها علي مهنتي، ولذلك سأطلب منك تحضير موضوع آخر للرسالة لأن هذا لن يقبل على الأغلب

تجمدت ابتسامة شيماء وشعرت بغصة جديدة... شعرت للحظة بأن قبول كريستينا لقراءة الملف ليس إلا مناورة منها لمحاولة الظهور بمظهر المشرفة الموضوعية، وأن قرار الرفض هو القرار النهائي...

○○○○○

مرت ثلاثة أيام... كان من المفترض أن تقرأ خلالها ملف الأطروحة لتبدي رأيها به إلا أنها كانت تتحاشى التفكير في الأمر، كانت تشغل تفكيرها بأي شيء آخر، حتى إنها حاولت الطبخ لأول مرة في حياتها.

فتحت موقع يوتيوب وحاولت أن تطبق ما جاء فيه عن وصفة معكرونة الاسباغيتي الإيطالية؛ ولكنها لم تعرف كيف وصل الحال بالاسباغيتي ليصبح كالأرز المسلوق، المهم أنها حاولت.. وهذا شرف يكفيها.. حتى وإن انتهى بها المطاف بأن تطلب طعامها من الخارج كما هو حالها كل يوم.

عصر ذلك اليوم؛ كانت جالسة إلى مكتبها الفخم ذي اللون الخشبي الفاتح، مستعينة بالضوء المكتبي؛ فضوء النهار كان قد غاب خلف أكوام من السحب الرمادية التي سدت الأفق.

على المكتب الواسع تتناثر أدوات مكتبية وقرطاسية من الكريستال المذهب، وتمتد أمامها مباشرة أجندة من الجلد الأصلي ذات لون بني محروق ليعطي المكتب جمالًا ورونقًا أخّاذًا.

ألقت نظرة على ملف شيماء الموضوع بعيدًا على طرف الطاولة، أطالت النظر إليه:
واجهي الحقيقة كريستينا... قالت هامسة وهي تمد يدها لجذبه.
وضعته أمامه وتأملته مرة أخرى أطلقت تنهيدة ضجرة ثم أغمضت عينيها، واستنشقت نفسًا وسكنت للحظات محاولة أن تستعيد هدوءها الداخلي فجعلت تتخلص من أسباب الضجيج في عقلها الواحد تلو الآخر: وفاة والدها.. ومرضَها الذي لا أمل في شفائها منه.. ووِحْدَتَها القاتلة.. وشعورَها بأن الناس تشفق عليها.. وروزَ الصغيرةَ المسكينة...
جمعت كل هذه الأمور وأقفلت عليها في صناديق صغيرة في عقلها، عندها وفي حالتها الساكنة تلك حملت الملف وفتحت غلافه لتقرأ عليه

عنوان الأطروحة: "الأوقاف النسائية ودورها في نهضة المجتمع عبر التاريخ الإسلامي" من إعداد شيماء عبدالله.... وكتب تحتها بخط صغير بالكاد يمكن قراءته: "صروح التآلف والرحمة والحب"

قلبت الصفحة لتجد صفحة فارغة ناصعة البياض ولكنها وبشكل لا إرادي عادت إلى الصفحة الأولى وأعادت قراءة الجملة المكتوبة تحت عنوان الأطروحة عدة مرات.

لقد وقعت الجملة في قلب كريستينا، وشعرت أن فيها شيئًا خفيًا يشدها لمتابعة القراءة؛ رغم أن جملًا كهذه غير مألوفة في البحوث والدراسات والأطروحات المعدة بشكل علمي بحت كالأطروحة التي تقدمها شيماء للحصول من خلالها على شهادة الماجستير...
تجاوزت الصفحة الفارغة على عجل.. وراحت تقرأ المقدمة التي كانت شيماء قد خطتها بعناية..
قرأت عن انتقال فكرة الوقف من المجتمع الإسلامي إلى مختلف أصقاع الأرض وكيف استفادت الدول الغربية في أوروبا وأمريكا من فكرة الوقف كمؤسسة تعنى بشتى مجالات الحياة.

أثارت الكلمات الأولى من المقدمة فضول كريستينا خصوصًا عندما أوردت شيماء فكرة انتقال الأوقاف إلى المجتمعات الغربية من الحضارة الإسلامية وتمنت لو أن المقدمة احتوت على تفاصيل أكثر عن هذا الانتقال أو المحاكاة التي جرت لفلسفة الوقف في المجتمعات الغربية التي تنتمي هي إليها... لم تستطع تمالك نفسها ففتحت حاسبها المحمول وانتقلت إلى موقع غوغل على الفور وكتبت في خانة البحث الهبات الدائمة في الولايات المتحدة الأمريكية، أرادت أن تعرف كنه هذا الشيء الذي انتقل إلى الحضارة الغربية من رحم الحضارة الإسلامية.

في نتائج البحث ظهر مصطلح يعرف بـ Philanthropy وهو اصطلاح

شامل يضم أعمال الخير الاجتماعي عند الغربيين وتندرج تحته تلك الهبات الدائمة غير أن ما أثار استغرابها بشكل أكبر هو ما توصلت إليه عندما تعمقت في البحث فعرفت أنها كلمة جاءت من أصول لاتينية في بداية القرن السابع عشر وهي من أصل الكلمة الإغريقية Philanthropos المكونة من جزئين Philos وتعني الحب وAnthropos والتي تعني الناس وبالجمع بينهما تصبح الكلمة (حب الناس).

تركت جهازها المحمول وعادت مباشرة لتكمل ما بدأت به...
بدأت كريستينا تلاحظ الربط الذكي الذي أوردته شيماء في بحثها بين الأوقاف والحلول المختلفة للقضايا الاجتماعية ومكافحة الخلل الاجتماعي وكان مثال ذلك بئر رومة الذي كان مملوكًا لأحد اليهود في المدينة وكان يبيع ماءَه لأهل المدينة، فلما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وليس فيها ماءٌ يُستعذَب غيرَ بئرِ رُومَة قال: من يشتري بئرَ رُومةَ فيكون دلوُه مع دلاءِ المسلمين بخير له منها في الجنة فاشتراها عثمان به وأوقفها على أهل المدينة...

كانت شيماء قد خطت مقدمة البحث بإتقان وعناية شديدين وأوردت أمثلة من شأنها أن تجعل مفهوم الوقف في غاية الوضوح، فقد اعتبرت شيماء أن التصدق على فرد يعاني من الجوع حسنة تساعده على درءِ أوجاع الجوع، لكنه سيجوع تارة أخرى عقب نفاذ ما حصل عليه من طعام.
أما تدريب الجائع على حرفة أو مهنة ما يستطيع من خلالها أن يجني قوته بنفسه وبشكل دائم ومصدر حلال، أو معاونته على زراعة ما يكفي مؤونته من طعام يعتبر عملا خيريًا، لأنه يحل مشكلة الجوع كظاهرة اجتماعية.

كانت كريستينا قد بدأت بفهم بعض النقاط الأساسية حول الوقف...
ثم انتقلت لتتعرف على دور المرأة المسلمة في تنمية المجتمع الإسلامي وهي التي ساهمت منذ بزوغ فجر الإسلام بكل التكاليف الشرعية وأعمال البر والخير والأنشطة الاجتماعية.

وعرفت كريستينا أن الخطاب الإسلامي كان موجهًا للرجل والمرأة على حد سواء معتبرًا أن المرأة المسلمة لديها كامل الأهلية لتلقي الخطاب وتحمل المسؤوليات الفردية الملقاة على عاتقها، وكانت المرأة في الدين الإسلامي كالرجل في التكليف والحقوق الإنسانية وممارسة الإصلاح، وكانت لها مساهمات أساسية تنمية المجتمع سواء بالمساهمة في ذلك من مالها الخاص أو بتشجيعها للرجال من أسرتها على ذلك. واستشهدت شيماء على ذلك بدراسة كمية للأوقاف الكبيرة أن 25 % أنشأتها النساء، وأن 14% من الأوقاف كانت تحت إدارة النساء المسلمات

مع تعمق كريستينا بالقراءة أكثر فأكثر.. كانت الأفكار والأسئلة تتزاحم في رأسها فتشعر وكأنها تدخل في متاهة متشعبة من المستحيل الخروج منها، وبدأت مفكرتها بالازدحام بالأسئلة والأفكار الناقصة التي تريد الاستفسار عنها أو الاستزادة منها.

قرأت كريستينا عن نساء مسلمات أوقفن البرك والآبار وصهاريج المياه على طريق الحج وأخريات جعلن أوقافهن لخدمة الحجاج على طريق حجهم كمحطات التزود بالطعام والماء والاستراحة لأولئك المسافرين لأداء فريضة الحج من الدول والأمصار البعيدة ولدوابهم أيضًا.

وأدهشتها أخريات تفنن في وقف المساجد ومنهن امرأة تدعى فاطمة الفهرية التي قامت ببناء جامع القرويين وكانت طوال فترة البناء صائمة حتى تم بناؤه بالكامل، وصلت فيه شكرًا لله على أن وفقها لإتمامه. ويعد مسجد القرويين مسجدًا جامعة لاجتماع جميع سكان المدينة فيه، وكان له أثر كبير في حفظ الحياة الدينية والعلمية في العالم الإسلامي."

○○○○○

عزيزتي الصغيرة روز:
أنا أتحسن شيئًا فشيئًا، بالأمس قرأت قسطًا وافرًا من المخطوط الذي قدمته لي تلك الطالبة الأجنبية، ولأكون صريحة فإن شيئًا ما يجذبني في كل هذا الأمر، ليس الموضوع فحسب بل كل التفاصيل الصغيرة الواردة فيه هنالك شيء يثلج صدري ويريح قلبي، ولكنني لم أعرف ما هو حتى الآن.

لم أكن أتوقع أن هذا المخطوط الذي تهربت من قراءته عدة أيام حتى إنني طهوت... نعم أنا طهوت حتى أشغل نفسي عن قراءته، لم أتوقع أن يشدني إلى هذا الحد.

اليوم بعد الظهر سأقابل الفتاة، هناك الكثير في جعبتي ولا أطيق الانتظار، يا لغبائي كيف حددت الموعد بعد الظهر؟، كيف لم انتبه إلى البطء القاتل الذي ينتاب الوقت في مثل هذه المواقف؟
أظن أنه يجب عليّ أن أمنع نفسي من الانجراف وراء ذلك، فأنا دكتورة مشرفة ويجب أن أتحلى بالمنطق والحيادية والأمانة العلمية، نعم يجب أن أكون أكثر صبرًا واتزانًا، أما أنت فكوني أكثر جلدًا وتحملًا يا عزيزتي واعلمي أن قلبي المتعب سيكون معك دائمًا.
صديقتك المخلصة كريستينا

○○○○○

أطلت شيماء من الباب بابتسامة ودلفت إلى المكتب تصافحتا قبل أن تطلب منها الجلوس وتدور لتستقر في مكانها خلف المكتب.

- في البداية أعتذر لتأخري في القراءة كنت منشغلة ببعض الأمور
- لا بأس... المهم والمرجو أن يكون ما قرأته قد نال إعجابك ورضاكِ... قالت شيماء بابتسامة مرتبكة.
- لا أنكر.. ما قرأته حتى الآن أثار فضولي قليلًا.. رغم ذلك فإن لدي بعض الملاحظات على ما قرأت.
- تفضلي لو سمحتِ... قالت شيماء وهي تخرج مفكرتها من حقيبة يدها وتستعد للكتابة.
- بحثك جيد للغاية ولكنني أظن أنه يفتقر إلى الأدلة، وإذا كنا سنناقش رسالة للحصول على ماجستير فلا بد وجود أدلة، مثلاً ما هو دليلكم على أن دينكم حث على الوقف؟ وأن الخطاب الإسلامي كان موجهًا للمرأة والرجل على حد سواء؟ وأنه وعد من يفعل الخيرات بالاستخلاف في الأرض؟ وأن الصدقة الجارية تضمن للإنسان استمرار عمله بعد الموت؟ كل هذه أمور أوردتها في مخطوطك دون أن تذكري دليلًا واحدًا عليها.
- حسنًا معك حق... قالت شيماء وهي تدون ما تقوله كريستينا بسرعة كبيرة حتى لا تنسى شيئًا.
- هل هناك أي ملاحظة أخرى؟ أردفت وهي تخط آخر حرف من لملاحظات السابقة:
- شيء صغير آخر... قالت كريستينا وهي تشير بإصبعيها السبابة والإبهام.
- بالتأكيد تفضلي... قالت شيماء وهي تمسك القلم مرة أخرى وتستعد للكتابة.
- ما سر فرحة الواقف بإتمام وقفه؟ إحداهن كانت تصوم خلال بناء وقفها وهو مسجد على ما أذكر وعندما أنتهى بناؤه صلت فيه شكرًا لله!! لماذا؟ توقفت شيماء عن الكتابة وقد لاحظت الفضول الذي يعتري كريستينا من خلال الإلحاح على هذا السؤال.

- حسنًا سأتدارك هذه الأمور عند الكتابة الثانية للرسالة... قالت شيماء وهي تنهض من مكانها بحماسة وقد ضمنت أن موضوع الرسالة لن يتم تغييره.
- هذا بالتأكيد ما ستفعلينه... لكن...!
- هل هناك ملاحظات أخرى... قالت شيماء بينما ترتب أشياءها استعدادًا للرحيل.
- ألا تملكين إجابة على الأسئلة التي طرحتها الآن... قالت كريستينا بارتباك وقد أصبح فضولها وظمأها للمعرفة واضحًا.
- بلى... قالت شيماء بثقة وهي تجلس على مقعدها مرة أخرى.
- حسنًا أنا أسمع... قالت وهي تعقد يديها أمام صدرها وتسند ظهرها إلى الكرسي المقابل لشيماء مباشرة.

فتحت شيماء مفكرتها وبدأت بالإجابة على الأسئلة الواحد تلو الآخر.
- أما الدليل على أن الإسلام حث على الوقف فقول الله تعالى في القرآن الكريم في سورة آل عمران: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" وكذلك قوله تعالى في سورة الحج "يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون " وفي سورة البقرة "وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون" وفي آية أخرى من سورة آل عمران "وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين"، ومن سنة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام قوله: "سبعة يجرى للعبد أجرهن بعد موته وهو في قبره من علم علمًا، أو كرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلًا، أو بنى مسجدًا، أو ورث مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته" وهو جواب على السؤال الرابع أيضًا.

والدليل على أن الخطاب الإسلامي كان موجهًا للمرأة والرجل على حد سواء هو قول الله عز وجل في القرآن الكريم في سورة النحل: "من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون". والدليل على أن الله وعد الذين يعملون

الصالحات بالاستخلاف في الأرض قوله تعالى في القرآن الكريم في سورة النور "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنًا"

كانت كريستينا تستمع إلى ما تقوله شيماء فاغرة فاها ومتجمدة في مكانها دون أن تستطيع الحراك، وكانت شيماء تتلو الآيات المذكورة بثقة كبيرة وبإنجليزية طليقة وكانت كلمات القرآن تستقر في شغاف قلبها، ولم تشعر بأن دموعها قد سالت وهي تستمع إلى آيات القرآن الكريم حتى تقطرت من أسفل ذقنها.

- وأما عن سؤالك الأخير... قالت شيماء وهي تطبق مفكرتها.

- فالسعادة هنا يا دكتورة هي جوهر الأمر، رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث: "أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس" ولاحظي هنا أن المذكور هم الناس وليس المسلمين أو المؤمنين، فأي سعادة يمكن أن تغمر الواحد منا إذا عرف أنه سيكون من أحب الناس إلى الله لأنه كان أنفعهم لغيره.

ثم نظرت شيماء إلى سقف الغرفة وهي تفكر ملياً

- هل جربت الشعور الذي ينتابك عندما تعطين أحدًا دون مقابل؟ عندما تفرِّجين هم شخص ما؟ أو تنقذين طفلًا من ورطة؟ أو امرأة من مرض؟ أو حيوانًا من الجوع أو البرد؟ عندما تساعدين طالبًا على إكمال تحصيله العلمي وهو ما حدث معي أنا بالذات!

يكمن سر الفرحة والسعادة في كون الواقف قد ساهم في تنمية المجتمع وخلّصه من كثير من الآفات التي قد تكون منتشرة فيه لسبب أو لآخر... وهنا كان دور المرأة الذي أردت الحديث عنه...

ففيما يتعلق بالتعليم؛ شاركت النساء في إنشاء المدارس على نطاق واسع في التاريخ الإسلامي، حيث اشتهرت في أرجاء العالم الإسلامي

الكثير من المدارس التي أنشأتها زوجات الخلفاء والحكام والأمراء مثل المدرسة البشيرية في بغداد التي بنتها زوجة الخليفة العباسي المستعصم. والمدرسة المعتصمية في بغداد التي أنشأتها شمس الضحى حفيدة صلاح الدين الأيوبي. والمدرسة الشامية البرانية: والمدرسة الشامية الجوانية التي أنشأتها في دمشق ست الشام أخت صلاح الدين الأيوبي.

ومن اللواتي أوقفن للمدارس أم هولاكو؛ فإنه؛ ونتيجة لولع المسلمين بالتعليم واهتمامهم به نشاهد حتى الغزاة الذين دمروا العالم الإسلامي، وحرقوا المكتبات والكتب والمدارس، نجدهم بعد اعتناقهم للإسلام بمدة قصيرة جدًا ابتدأوا في إيقاف الأموال على تشييد المدارس والإنفاق عليها مباشرة، ففي بخارى أنشأت أم هولاكو بعد إسلامها مدرستين، إذ أوقفت عليها الأموال لبنائها وللإنفاق على طلبتها الذين بلغوا ألفًا لكل منهما. كما أوقفت على كل مدرسة مكتبة رائعة وجلبت لها الكتب المتبقية من باقي ديار الإسلام التي وقعت تحت السيطرة المغولية.
وعرف في النساء وقف المستشفيات ومنهن أم الخليفة المقتدر التي افتتحت مستشفى على نهر دجلة في بغداد وأوقفته.
ومن المعروف أنه مع إنشاءِ المدارسِ ووقفِها يُذكر دائمًا إنشاءُ المكتبات ووقفُها.

وفي هذا الإطار تبرز بعض النماذج المهمة في هذا السياق ومنها: مكتبة المدرسة البشيرية التي أنشأتها زوجة الخليفة المستعصم بالله العباسي أم ولده أبي نصر المعروفة بباب بشير فأوقفت عليها الكتب والأموال، وكانت كتبها تعار خارج أسوار الجامعة لقاء رهن للحفاظ على الكتب وضمان إعادتها...

كانت كريستينا تستمع إلى كلام شيماء وتناقشها في بعض الأمور وتستفسر عن أمور أخرى حتى يظن الناظر إليهما من الخارج بأنهما قد

تبادلتا الأدوار فأصبحت شيماء هي المشرفة وكريستينا هي الطالبة....
بعد جلسة نقاش طويلة التفتت كريستينا إلى شيماء واخبرتها بأن أطروحتها مثالية لتصبح رسالة لنيل شهادة الماجستير وأنها تتشرف بأن تشرف عليها، في تلك اللحظة بالذات كادت شيماء أن تطير فرحاً وتمنت لو أنها تستطيع احتضان كريستينا لشدة فرحها...
في غمرة فرحها الغامر رن هاتفها... كان المتصل هو أخوها فيصل
- ألو فيصل... خمن ما حدث

ولكنها لم تزد على تلك الكلمات.... بوجه شاحب وأطراف مرتجفة بالكاد تحملها هرعت شيماء خارجة من المكتب تاركة كريستينا في خضم من الحيرة والذهول...

○○○○○

كانت كريستينا قد وصلت لتوها إلى البيت، أعدت كوباً من قهوتها الخالية من الكافيين وراحت تتأمل بريستول ونهر (فروم) من شرفة قصرها...
كانت أفكارها مبعثرة بشكل لا يصدق، كانت تفكر بكل ما ورد في البحث الذي أعدته شيماء لرسالة الماجستير، كانت تشعر بأن كل ما قرأته قريب جداً إلى قلبها، فكرة أن تبحث عن سعادتك في إسعاد الآخرين كانت بمثابة إلهام لها، وكأنه أمر وجد لحالتها هي بالتحديد...

فجأة رن في عقلها صوت أبيها وهو يطلب منها أن تتبع قلبها، لوهلة شعرت أن أباها كان يعرف أنها ستقرأ هذا المخطوط يوماً ما، ثم خطر ببالها ذلك الحلم الغريب الذي رأته قبل فترة... أتراه كان يريدها أن تتبع شيماء؟
تناولت رشفة من قهوتها وابتسمت مستسخفة ذلك الخاطر الذي جال في عقلها لبرهة، من أين لأبي أن يعرف شيماء؟؟! قالت في سرها وقد اتسعت ابتسامتها
شيماء؟!! صحيح كانت قد نسيت في غمرة تفكيرها الصاخب حالة شيماء أثناء مغادرتها للمكتب، فكرت في أن تتصل لتطمئن عليها، ولكنها عدلت عن الفكرة... تذكرت الحديث الذي دار بينها وبين شيماء قبل أيام حول العلاقة المهنية مع طلابها، ورغم انشغال بالها بالأمر الذي جعلها على تلك الحالة...
قاطع جرس باب القصر شرودها وأجبرها على ترك قهوتها، في طريقها إلى الباب فكرت في أنه ربما يجب أن يستعيد الخدم عملهم في القصر....
كانت قد هاتفت مارغريت أثناء عودتها إلى المنزل وأخبرتها بأنها قبلت الإشراف على رسالة شيماء، وعندها دعت مارغريت نفسها إلى بيت كريستينا
دخلت مارغريت حاملة بعض الأكياس، واتجهت مباشرة نحو بهو القصر حيث ألقت أكياسها وارتمت على إحدى الأرائك
- قررت أنه يجب أن نحتفل

وتابعت قبل أن تنطق كريستينا المصابة بالذهول بأي كلمة
- لا يمكن الاعتراض أو الرفض، هذا قرار نهائي

ضحكت كريستينا وهي تجلس على أريكتها
- أريد أن أعرف مناسبة الاحتفال فقط
- السبب هو عودتك إلى الحياة، هل تعرفين يا حضرة الدكتورة أنك نجوتِ بأعجوبة؟

حملت كريستينا قهوتها مرة أخرى وتناولت رشفة وقالت دون أن تعطي أهمية للأمر
- نعم أعرف... هذا ما قالوه لي في المستشفى، ولكن كيف عرفت أنتِ؟

صمتت مارغريت لبرهة وكأنها شردت بأمر ما ثم تابعت كلامها أثناء شرودها
- أنا كنت الشاهدة على كل شيء.. وكلما فكرت شعرت أن القدر لم يرد موتك حينها... ربما لتحصلي على السعادة التي ترومينها... أو ربما ستكونين السبب في سعادة أحدهم... ربما من يدري؟
- هل ستخبرينني ماذا حدث؟ قالت كريستينا وهي ترتشف قهوتها بلا مبالاة محاولة أن تخفي فضولها الذي تولد فجأة

تابعت مارغريت وهيي تشير بيديها محاولة إعطاء مؤثرات مناسبة للحدث
- لا أدري! حدث أمر غريب في الليلة التي تم إسعافكِ فيها إلى المستشفى كانت سيارة الإسعاف عالقة في زحمة السير وكان الطبيب المتواجد فيها يحاول إنعاش قلبك الذي بدأت دقاته بالانخفاض بشكل تدريجي. كنت أتابع كل شيء على الشاشة الصغيرة الموصولة إلى جسدك داخل الإسعاف...

فجأة بدأت الشاشة تصدر صوتًا مزعجًا، "يجب أن نصل إلى المستشفى في أسرع وقت" هذا ما قاله الطبيب وهو ينظر إليَّ وقد شحب وجهه..
كنتِ بحاجة إلى دخول غرفة العناية المركزة بشكل عاجل
الازدحام كان كبيرًا ولم تستطع سيارة الإسعاف المناورة... لذلك فضلت أن أترجل من السيارة وأحاول أن أحث السيارات على فتح طريق للإسعاف ولكن دون جدوى، كانت ليلة الهالوين، وكان الازدحام متراكمًا حتى مسافةٍ بعيدةٍ على الطريق
صرختُ كثيرًا.. ولكن صرخاتي ضاعت بين ضجيج المنبهات المتعالية التي تحاول فسح المجال لنا ودوي صفارة الإسعاف، بدأ اليأس والخوف يتملكان قلبي وقد بدا أن مرور سيارة الإسعاف أمر مستحيل.

قالت كريستينا برزانة وقد زاد فضولها
- وكيف وصلت إلى المستشفى إذن؟!

تابعت مارغريت حديثها بذات الحماس
- فجأة ظهرت بين السيارات فتاة ترتدي عباءة وحجاباً.....

فجأة توقفت مارغريت عن الحديث وانتصبت في مكانها وقد شردت نظرتها في مكان محدد وبدا أن لون وجهها قد تغير، بدت وكأنها تلقت صدمة قوية عقدت لسانها بينما راحت كريستينا تتابعها مستغربة ما حدث
صمتت مارغريت لبرهة قبل أن تلتفت إلى كريستينا وتقول في ذهول

- لا أصدق... الآن تذكرت أين رأيتها... تلك الفتاة كانت طالبة الماجستير شيماء!!!
تجمدت ملامح كريستينا بينما تحدق بصديقتها....

أكبت شيماء على سريرها وراحت تنشج بصمت وهي تشد بقبضتيها على الملاءة الناعمة العابقة بالعطر الذي طالما كان يذكرها بأمها، كان القهر ينهش أحشاءها وهي ترى جزءاً منها يموت أمامها...

أرادت أن تصرخ، تمنت لو أنها تستطيع أن تعبر عما يعتمل بداخلها من ألم ولكنها ابتلعت ألمها وآثرت البكاء بصمت... لم تستطع ان تنطق بأي كلمة، إنها والدتها، والدتها التي أعطتها كل شيء بكل ما تحمله "كل شيء" من تعابير ومعانٍ من مفردات اللغة ولذلك آثرت البكاء بصمت
في لحظة القهر تلك استرجعت بذاكرتها خمسةً وعشرين عاماً كاملة كانت والدتها خلالها منبعاً للحب والعطاء، تذكرت كيف رفضت أي شكل من مظاهر الحياة بعد وفاة زوجها في سبيلها وأخيها، تذكرت القسم الذي أقسمته أمام قبره بأنها ستحافظ على ولديهما وستؤمن لهما عيشاً كريماً لا يشوبه ذل ولا انكسار، وتذكرت بأنها أبرت بذلك القسم على أكمل وجه ولذلك فقد آثرت البكاء بصمت

لم يكن بوسعها أبداً أن تلوم أمها... لأنها ببساطة أم أرادت أن تحمي ابنتها حتى من الحزن والكدر.. ولذلك فقد آثرت البكاء بصمت
في ذلك اليوم بالذات عرفت معنى أن يكون عنصر الحماية والأمن هو ذاته عنصر الضعف وهو العنصر الذي قد يصيب المقتل، بالضبط كسلحفاة انقلبت على ظهرها فأصبحت صدفتها -التي صممت أساساً لحمايتها- هي ذاتها نقطة ضعفها التي قد تودي بحياتها...

في ذلك اليوم عرفت السبب الذي جعل أمها تتوقف عن تلميحاتها ومحاولات إقناعها بترك الدراسة في الخارج والعودة لمتابعة الدراسة ضمن المجتمع الآمن بالنسبة لها كانت قد وجدت سبيلاً آخر...

كان فيصل قد اتصل بها ليخبرها بأن لجنة المنح في المؤسسة الوقفية قد أوقفت منحتها، وأنها من تاريخ ورود كتاب الإيقاف ستكون المؤسسة

في حل من أي مصاريف قد تتطلبها دراسة شيماء وهو ما يعني القضاء على الحلم بالحصول على رسالة الماجستير...
بدون منحة لن تستطيع الصمود ولا حتى شهراً واحداً، إذن باتت العودة حتمية
ها هي والدتها اليوم تتسبب بموت حلمها، وبموت جزء من أجزائها، وهي تظن بذلك أنها تحميها...

بعد أن يئست من إقناع ابنتها كانت الأم قد أرسلت إلى المؤسسة طلباً بإنهاء المنحة بسبب عدم نجاح ابنتها وكانت قد أرفقت ذلك الطلب بكتاب التنبيه شديد اللهجة الذي وجهته الجامعة لها قبل أسابيع وهو ما تعتبره المؤسسة سبباً وجيهاً لإنهاء المنحة يندرج تحت بند إساءة السلوك الأمر الذي لا تساهل فيه على الإطلاق...

شاركتها أمها بكاءها ولكن في وقت لم يعد يفيد معه البكاء... لقد قضي الأمر... وهوت شيماء من على حافة حلمها إلى الهاوية السحيقة...
تمنت في الأيام القليلة التالية أن تستيقظ لتجد نفسها في كابوس، ولكن ذلك لم يحدث، على العكس كانت كل دقيقة تمضي تبعدها عن حلمها أكثر....

○○○○○

عزيزتي الصغيرة روز..
أرجوك كوني بخير... أخبرتني أمك أنك قد فقدت شعرك ولكن لا تقلقي أبدًا فأنت ما زلت في غاية الجمال والروعة؛ ثم إن الشعر بضاعة مخلوفة كما يقولون المهم أن تتماثلي للشفاء وأنا متأكدة بأنك ستُشفَين...
أنا على خير ما يرام، لقد بدأت حياة جديدة وأنتظر شفاءك بفارغ الصبر لنبدأ معًا رحلتك الجديدة أيضًا.

تخيلي يا عزيزتي أنني وجدت سعادتي أخيرًا، وجدت الهدف من وجودي في هذه الحياة... اكتشفت أن سعادتي تكمن في سعادة الآخرين، وأن الهدف من وجودي هو أن أكون طوق نجاة للكثيرين، أيَّ سعادة أبغيها بعد هذه السعادة؟ وأستطيع القول الآن بأنني أصبحت راضية عن كل ما أنا فيه وما كنته وما سأكونه.

اكتشفت أمرًا آخر أيضًا، هل تذكرين تلك الطالبة الأجنبية التي أخبرتك عنها؟ لقد كانت منقذتي، في اليوم الذي قررت أن أموت فيه وضعها الله في طريقي لتدلني على الطريق الصحيح ولولاها لكنت الآن تحت التراب دون أن أكتشف ذاتي وسعادتي، لقد أهدتني هذه الفتاة قلبـاً جديداً... قلبـاً سليماً... قلبـاً قوياً غير القلب الذي أحمل!

أتراها شيماء هي تلك الفتاة في الحلم التي أوصلني أبي إليها عند منبع النور؟ أتراها هي من أخذت بيدي إلى تلك الجنة الخلابة؟ لا أدري ولكنني بت متأكدة من أن هذه الفتاة ستكون طريقي نحو ذاتي
كما أنني متأكدة من شفائك الذي أنتظره بفارغ الصبر.
صديقتك المخلصة كريستينا.

○○○○○

عزيزتي الصغيرة روز
أنا أتألم اليوم... لقد أخبرتني شيماء بأنه تم إنهاء منحتها ولذلك فهي لن تستطيع إكمال دراسة الماجستير ولن أكون المشرفة عليها أبداً، وأكثر ما يؤلم في الأمر أن السبب في كل ذلك هو العقوبة التي تلقتها إثر الشكوى التي تقدمت بها عليها إلى إدارة الجامعة...

اكاد لا أصدق أنني كنت يوماً ما عازمة على التخلي عن الإشراف على رسالة الماجستير التي ستقدمها شيماء، إنني اليوم أشعر بأنني سأفقد جزءاً من روحي بغيابها عني... كما أنني أريد متابعة التعرف على كل التفاصيل الجميلة التي تحتويها رسالتها... بأمانة لم أتخيل أن عالم الوقف بهذه الروعة، لم أكن أتخيل كم الفائدة التي تقدمها الأوقاف للمجتمعات من جهة، ولم أكن أتخيل الفائدة التي ستقدمها لي على الصعيد الشخصي من جهة أخرى

بعد يومين سيكون موعد سفرها... كلما فكرت الأمر شعرت بالخواء القديم الذي كان يعتري صدري...
هل يعقل أن تذهب بعد أن وجدت بفضلها طريقي نحو سلامي الداخلي؟
لا أدري....

اعتذر يا صغيرتي فأنا لست بخير ولذلك عديني أن تبقي أنت بخير أرجوكِ
صديقتك المخلصة كريستينا

○○○○○

ألقت شيماء نظرة سريعة على ساعتها ثم أطلقت تنهيدة قلقة وهي ترنو باتجاه الباب الخارجي للقاعة الرئيسية في مطار بريستول، الوقت ينفد وتكاد الطائرة أن تقلع من دونهما

كان من المفترض أن تأتيا معاً إلى المطار رفقة أخيها فيصل إلا أن الأم غيرت خطتها فجأة وطلبت من فيصل أن يرافقها لشراء بعض الهدايا لصديقاتها وجاراتها في الرياض وطلبا منها أن تسبقهما إلى المطار هي تنتظرهما منذ أكثر من ساعتين وقد بدأ القلق بالتسلل إلى قلبها وكأن ما كان ينقصها إلى جانب كل الحزن الذي هي فيه هو أن تقلق لتأخرهما في القدوم إلى المطار

حاولت مراراً الاتصال بفيصل ولكن عبثاً فهاتفه إما مشغول أو مغلق! بينما هي في أوج قلقها مر من أمامها رجل ممسكاً بيد طفلته الصغيرة وهما يمشيان مبتعدين عنها... لاحقتهما بنظراتها حتى غابا عنها بين زحام المسافرين...

استسلمت مرة أخرى لأحزانها، أعادت اللقطة إلى ذاكرتها مشهد أبيها وهو يوصلها إلى المدرسة ويمسح على رأسها ويقبله قبل أن يتركها... شعرت بفيض هائل من الاشتياق له، كان شعوراً أقرب إلى الاحتياج منه إلى الاشتياق، تمنت لو أنه موجود إلى جانبها... لو أنها تلقي في جعبته بعضاً من همومها وأحزانها، لو أنه يمسح على رأسها كما كان يفعل عندما كانت صغيرة... شعورها بأنها اقتلعت من حلمها كان يملأ صدرها بالقهر... يفجر آلامها... يكاد يصيبها بالجنون، لذلك كانت تشعر بأنها بحاجة إلى كتف والدها... وحده كان الكافي ليخفف من معاناتها وآلامها...

استفاقت من شرودها على دوي مكبرات الصوت في المطار منادياً مرة أخرى على الركاب المسافرين على متن الخطوط الجوية العربية

السعودية في الرحلة المسافرة إلى الرياض
تلفتت حولها باحثة بين الوجوه عن عائلتها وقد أرهقها خليط المشاعر المتخبط بداخلها فشعرت برغبة شديدة بالبكاء كطفل ضاع عن أهله وسط سوق مزدحم بالمارة...وتفلتت من بين جفنيها دمعة متمردة وسالت على خدها ثم ما لبثت أن فاضت عيناها بالدموع وهي تتحرك على غير هدى في القاعة المكتظة تتفرس في الوجوه التي شوهتها آثار الدموع على عينيها بحثاً عن أمها وأخيها...

بين الجموع لمحت فيصل من بعيد يلوح لها بيده... للحظة ملأها شعور بالسكينة والطمأنينة أرادت أن تجري نحوه إلا أن حياءها منعها فحافظت على اتزانها مسحت دموعها بكمي عباءتها واكتفت بابتسامة خفيفة ولوحت له بيدها بينما مشت مقتربة منه... كانت أمها متأخرة عن فيصل بخطوتين فقط واستطاعت مع اقترابها منها أن تلحظ تغيراً ما يكسو ملامح وجهها... ليس وجه أمها الذي رأته في الصباح! لا أحد يستطيع أن يحدد حالة أمها ومزاجها أكثر منها...

فيصل أيضاً كان مختلفاً عما كان عليه في الصباح! ما الذي يجري عساه خيراً
هكذا حدثت نفسها بينما كانت تقترب منهما أكثر فأكثر
هتفت شيماء قبل التقائها بهما
- لقد تأخرتم ستفوتنا الطائرة

لاحظت ردة الفعل غير المبالية على وجهيهما الباسمين على نحو غريب لا يشبه أي شيء مما كان سائداً في الصباح...
ضحك فيصل وهو يمسك بكتف أمه
- فلتفتنا... ربما لدينا أعمال أهم هنا...

قال كلماته وهو يتبادل الابتسامات والنظرات مع والدته بينما بدت شيماء غير مدركة لما يحصل أمامها...

نقلت شيماء نظرها بينهما وقد أوشكت على الغضب إذ إنها لم تحتمل برودة أعصابهما بينما كانت قبل قليل تتجول بين الناس كالمجنونة
- أي أعمال تلك التي ستكون أهم من اللحاق الطائرة؟ ... لقد وجهوا النداء الأخير قبل قليل، يجب أن نغادر حالاً

اتسعت ابتسامة فيصل وهو يقول:
- لن نغادر أبداً... سنبقى في بريستول وستتابعين دراستك
نقَّلت نظرها بين أمها وأخيها وقد جحظت عيناها غير مصدقة ما سمعت أذناها منهما... كانت كمن انعقد لسانها فلم تستطع أن تقول أي كلمة وسط نظراتهما الحانية إليها، وبينما هي كذلك إذ لمحت خلفهما شخصاً تعرفه...

مسحت بكمي عباءتها ما تبقى من الدموع عليهما حتى تميز شخصية ذلك الإنسان الغامض الذي يرافق أمها وأخاها إلى المطار... حدقت جيداً ثم عادت لتفرك عينيها جيداً، لم تصدق ما رأته عيناها، نعم إنها هي تقف هناك وتنظر إليها مع بابتسامة رزينة كانت المرة الأولى التي تراها على وجهها، ثم عادت لتنظر إلى فيصل وأمها نظرات مشبعة بعلامات الاستفهام والتعجب!، ما الذي جاء بالدكتورة وولفرين إلى هنا وما علاقتها بأهلها وماذا وراء كل ذلك، كانت كلها أسئلة تلح عليها في ذلك الوقت ولذلك بينما تنقل نظرها بيث الثلاثة معاً...

○○○○○

الغالية الصغيرة روز
اليوم عرفت معنى أن أكون السبب في سعادة إنسان ما، لقد رأيت ذلك بأم عيني، لا يمكن أن تتخيلي مدى السعادة التي غمرتني وانا أعيش هذه اللحظات، لحظات أعيشها للمرة الأولى في حياتي... أو دعيني أقول إنني للمرة الأولى في حياتي كنت واعية ومدركة لجوهر هذه اللحظات وحقيقتها.

ذلك الشعور الحلو الذي يحل محل الخواء المتراكم في الصدر لعقود فيحيله إلى جنات خضراء تبعث في النفس راحة ليس لها مثيل ولا يمكن أن تقدر بثمن أو تشترى بمال.

كانت زيارتهما غير متوقعة، بينما كنت في مقر عملي في الجامعة دخلت علي امرأة بملامح شرقية ولباس إسلامي كامل، برفقة ابنها الذي كان قد جاء معها ليترجم ما ستقوله لي..

في البداية لم أستطع أن أجد سبباً واحداً يجعل تلك السيدة تزورني في مكتبي ولكنني سرعان ما عرفت أن هذه المرأة هي والدة شيماء!
كانت تبحث عن حل يخلص ابنتها من ذلك العذاب الذي سببته لها وهي تظن أنها تحميها أو تحسن لها صنعاً وعلى ما يبدو أنها وجدت مفتاح الحل عندي...

توسلت إلي لأعفو عن شيماء وأهاتف شخصاً ما في بلدها وأخبره بأن ذلك التنبيه شديد اللهجة الذي حصلت عليه شيماء كان بسبب سوء تفاهم فظيع أدى لحدوث ذلك الخطأ، وأنني كنت على خطأ بشأن تلك الشكوى التي قدمتها...

كانت تلك الوسيلة الوحيدة التي اهتدت إليها لتصحيح الخطأ الذي ارتكبته بإرسالها نسخة من كتاب التنبيه إلى المؤسسة الوقفية التي تتكفل

بمنحة شيماء للدراسة هنا والتي أدت إلى حرمانها من المنحة...

شرحت لي ما يعتصر قلبها من ألم وهي تجد ابنتها العزيز تبكي حلمها الذي بدأ يتلاشى أما عينيها ولذلك قررت أن تأتي إلي وتطلب مني تلك الخدمة، وبأنني إن لم أقبل الآن فإنني سأكون قد قضيت على أي أمل بتتمة المنحة لشيماء التي تنتظر في المطار لتستقل الطائرة عائدة إلى بلدها.

كان من الواضح أنها لم تكن تعرف بعد بأنني قبلت الإشراف على رسالة الماجستير الخاصة بشيماء ولذلك فقد كانت توسلاتها وبكاؤها تشيان بمدى حزنها وشعورها بالذنب تجاه ابنتها...

المشكلة هي أنني لم أكن أستطيع أن أحادث جهة خارجية بخصوص دراسة أحد الطلاب دون الرجوع إلى إدارة الجامعة ولذلك تمنيت لو أنني أستطيع فعل شيء حقاً...

مع ذلك فقد استطعت أن آخذ إذن الدكتور جونسون مدير الجامعة بعد أن أخبرته بمدى نشاط الطالبة المعنية وتكامل أطروحتها، وحدثت أحد مسؤولي المؤسسة وتمكنت من إقناعهم بإعادة المنحة إلى شيماء...

قد لا تتخيلين يا صغيرتي مدى السعادة التي حلت بتلك السيدة وأنا أخبرها بنجاحي في إعادة المنحة إلى شيماء، ولا مدى السعادة التي غمرتني وأنا أراها على ذلك القدر من السعادة...

بعد انتهاء مهمتي كان لي طلب أخير من السيدة وابنها، وبالتأكيد لم تتوانَ السيدة عن تلبيته لي مباشرة ودون أي قيد أو شرط...
طلبت منها أن أكون أنا من يخبر شيماء بعودة المنحة إليها....

للمرة الأولى منذ تعييني في الجامعة أضم إحدى طالباتي بذلك القدر من الحب والسعادة، ولا أخفيك أن سعادتي في ذلك اليوم كانت مضاعفة، سعادتي بأني فرجت هم شيماء وسعادتي بعودتها للدراسة لتكون إلى جانبي لأتعلم منها عن تلك الصروح التي أوجدها المسلمون وبرعت فيها نساؤهم فكانت صروحاً للتآلف والرحمة والحب، صروحاً تعرفت من خلالها على مستوىً جديد من السعادة، مستوى خارج عن الإطار المألوف والمتعلق بوجود المال أو الصحة أو الصحبة والأولاد... إنها السعادة المتعلقة بالعطاء... العطاء المستمر الذي لا ينضب لسعادة مستمرة لا تنضب أيضاً..

لا أدري هل أبارك لشيماء عودتها أم أبارك لنفسي بتلك العودة المهم أن السعادة باتت هي القاسم المشترك الذي يجمع كلتينا في هذه الدراسة...

○○○○○

"شيماء عبدالله"

دوى الاسم عبر مكبرات الصوت ورافقه تصفيق عالٍ من الجماهير الحاضرة وكان على رأسهم والدة شيماء وأخوها فيصل إضافة إلى مارغريت والصغيرة روز وعائلتها.

صعدت شيماء منصة استلام الشهادة مرتدية الزي الخاص وتوجهت نحو لجنة المناقشة والإشراف على الرسالة.

- درجة الماجستير بإشراف الدكتور آشلي جونسون... دوى مكبر الصوت مرة أخرى.

تنازعتها مشاعر مختلطة ما بين السعادة العارمة بتحقيق حلمها الذي انتظرته طويلًا وما بين الحزن الذي اعتصر قلبها عندما لم تسمع اسم كريستينا خلال تقديم الشهادة لها.

رفعت شهادتها عاليًا واختلطت دموع الفرح بدموع الحزن وحاولت إلقاء كلمة مقتضبة بمناسبة تخرجها عبر مكبر الصوت أسوة ببقية زملائها وزميلاتها إلا أن العبرات خنقتها ولم تستطع التفوه بأي كلمة واكتفت بالنزول والاختفاء بين الجموع..

غاصت في المقعد الخلفي للسيارة وهي تحتضن شهادتها بصمت، ساهمة النظرات عبر زجاج النافذة إلى البعيد خلف الطبيعة الساحرة التي كانت تسحرها دائمًا ولكنها اليوم لم تكن قادرة على لفت انتباهها...

شاركها الصمت كل من أمها وأخيها، فهما يعرفان أن الصمت في هذا الظرف هو الأفضل بالنسبة لها.

بإعياء أغمضت شيماء عينيها وراح شريط ذاكرتها بالعودة إلى الوراء، وكأنها جالسة في قاعة للسينما، تذكرت الصداقة الغريبة التي جمعتها بكريستينا، واستعادت كل اللحظات التي عاشتها معها خلال المدة القصيرة التي تعرفا على بعضهما خلالها...

ما تزال رائحة عطرها عالقة بين أصابعها في ذلك اليوم الذي طلبت فيه أن تقابلها عند الواحدة من بعد الظهر، في نهاية اللقاء كانت كريستينا في غاية التأثر إلا أنها لم تكن تعلم ماذا تريد بالضبط أو ماذا تفعل أو إلى أين تتجه؟

كثرت اللقاءات بين الفتاتين وصارتا مقربتين من بعضهما بشكل كبير، وتعرفت شيماء على مارغريت والصغيرة روز، وحكت كريستينا لها عن الحلم الذي يراودها دائمًا وهو أن ترى والدها في الحلم وهو يطلب منها أن تتبع قلبها...
في إحدى لقاءاتهما أهدتها شيماء مصحفًا باللغة الإنجليزية وراحت تتدارسه معها بين الحين والآخر، كانت حياة كريستينا قد بدأت تنقلب رأسًا على عقب، شعرت بأن الفراغ الذي كان يسكنها بدأ يمتلئ شيئًا فشيئًا وبدأت تحس أن لحياتها طعمًا ولونًا آخرين..
في ليلة ماطرة شديدة الظلمة؛ وصلت كريستينا إلى منزل شيماء في ساعة متأخرة، كانت حاملة مصحف اللغة الإنجليزية

استقبلتها شيماء بشيء من الدهشة والاستغراب..
في تلك الليلة بالذات.. قالت كريستينا لشيماء إنها قررت أن تستمع إلى وصية والدها لها، وبأنها استمعت لما يقوله قلبها لها، وبين يديها.. شهدتْ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

ونامت وهي تحتضن المصحف.. بعد أن قضت الليل مع شيماء وهي تعلمها كيفية الصلاة وأركان الإسلام الأخرى.

○○○○○

عزيزتي الصغيرة روز..
أحمد الله وأشكره على استجابتك للعلاج.. تقول أمك إنك أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الشفاء إن شاء الله، الحمد لله الذي استجاب دعائي لك بالشفاء، لقد تضرعت إلى الله في جوف الليل أن يذهب عنك البأس ويرد إليكِ صحتك.

أنا في غاية السعادة.. لقد دخلت في الإسلام بعد أن وجدت ضالتي فيه، دين يحث على إسعاد الآخرين وتفريج همومهم بهذا الشكل لهو الدين الصحيح، واليوم مساءً سأتخذ قرارًا مصيريًا آخر بخصوص ثروتي أرجو أن يوفقني الله في اتخاذه.

اطلب منك الدعاء يا صغيرتي أن يسدد خطاي ويمنحني السعادة الأبدية في جنة الفردوس الأعلى.

○○○○○

في صبيحة يوم قارس البرودة؛ صعقت شيماء بخبر وفاة كريستينا كما صعق كل من يعرفها من حولها..

بعد مراسم الدفن؛ أخبرهم المحامي الخاص بالعائلة بأنها وهبت كل ثروتها وأملاكها وأوقفتها في سبيل الله؛ وجعلت منها وقفًا للأبحاث الخاصة بعلاج مرض السرطان، وأنها عينت كلًا من صديقتيها مارغريت وشيماء لإدارة أوقافها... أوقاف وولفرين...

تم بحمد الله

شيماء

أهدتني قلبـًا

تخيلي يا عزيزتي أنني وجدت سعادتي أخيرًا، وجدت الهدف من وجودي في هذه الحياة...

اكتشفت أن سعادتي تكمن في سعادة الآخرين، وأن الهدف من وجودي هو أن أكون طوق نجاة للكثيرين، أيّ سعادة أبغيها بعد هذه السعادة؟ وأستطيع القول الآن بأنني أصبحت راضية عن كل ما أنا فيه وما كنته وما سأكونه.

اكتشفت أمرًا آخر أيضًا، هل تذكرين تلك الطالبة الأجنبية التي أخبرتك عنها؟ لقد كانت منقذتي، في اليوم الذي قررت أن أموت فيها وضعها الله في طريقي لتدلني على الطريق الصحيح ولولاها لكنت الآن تحت التراب دون أن أكتشف ذاتي وسعادتي، لقد أهدتني هذه الفتاة قلبـًا قويًا غير القلب الذي أحمل!

9 786039 134077

لجنة الأوقاف بغرفة الرياض

غرفة الرياض
Riyadh Chamber